الدكتور عزت السيد أحمد

العرب أعداء أنفسهم

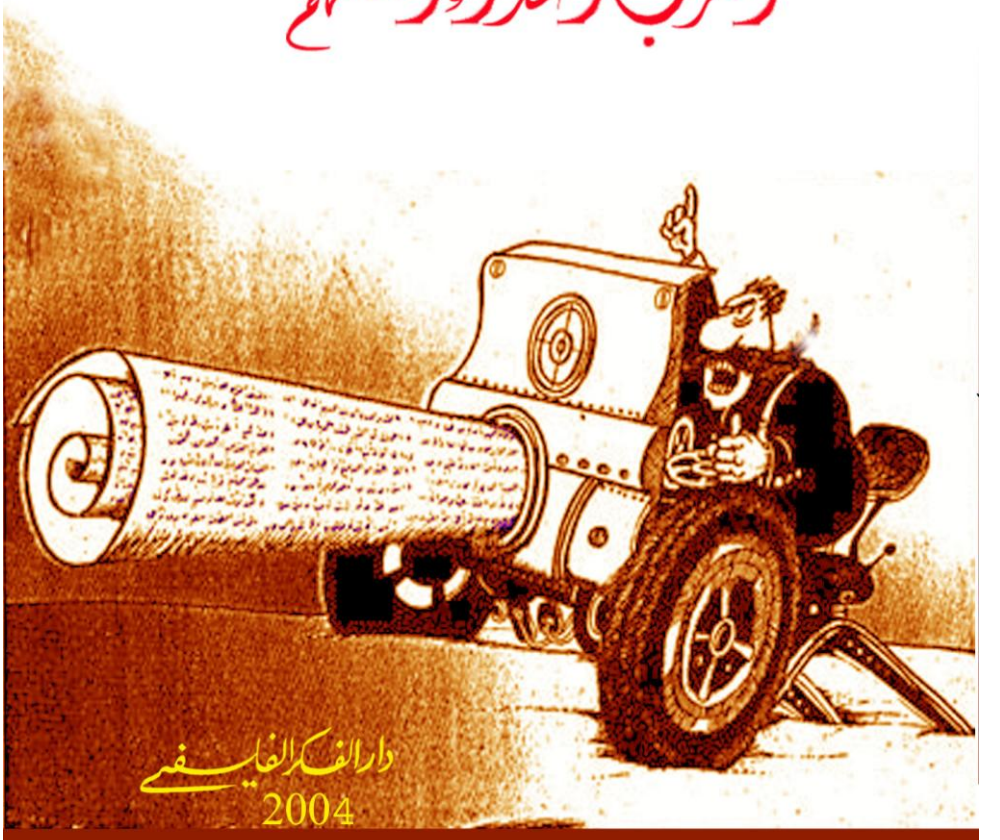

دار الفكر الفلسفي
2004

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

العرب أعداء أنفسهم

الدكتور عزت السيد أحمد

الدكتور عزت السيد أحمد

العرب أعداء أنفسهم

دار الفكر الفلسفي
2004

☆ الكتاب : **العرب أعداء أنفسهم**.

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد** .

☆ عدد الصفحات: ١٢٨ صفحة.
☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.
☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف.
☆ كاريكاتير الغلاف للفنان علي فرزات.
☆ تمت عمليات التنضيد والإخراج في دار الفكر الفلسفي للدراسات والترجمة والنشر بدمشق.
☆ تمت الطباعة في دار الرفاعي بدمشق ومنها يطلب الكتاب.

☆ **الحقوق جميعها محفوظة.**

تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام من دون موافقةٍ خطيَّة من النَّاشر أو المؤلِّف.

☆ النَّاشر: **دار الفكر الفلسفي.**
☆ ادمشق.
☆ الطبعة الأولى: **٢٠٠٤م.**

الإهداء

إلى ما بقي من الوجدان على قيد الحياة
في أمة العرب

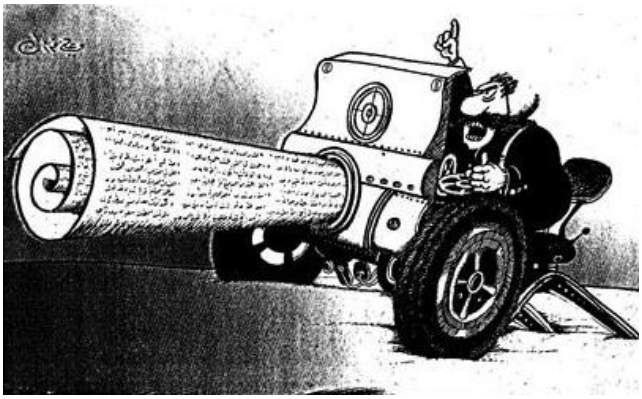

مُقَدِّمَة

أين يبدأ الوجع؟

أين ينتهي الوجع؟

ضاعت التَّفاصيل، ضاعت الملاح، ضاعت البوصلة، ضاعت الهوية كلها.

لا نعرف من أين نبدأ ولا أين ننتهي. فكلُّ نقاط البدء وجع، وكلُّ نقاط الوصول وجع، وأينما وقفت لتستريح من الوجع وجع.

حقًّا واقعاً إن حال أمتنا؛ أمة العرب، أكثر من مأساوي. تقف الكلمات عادزة عن وصف مدى بؤسنا ويأسنا وإحباطنا... من هول مأساتنا. كنا صغاراً ونكتب على دفاتر الذكريات: تعجز الكلمات عن التعبير عني حبي لك... عن اشتياقي... ولكننا لم ندرك أن عجز الكلمات هٰذا ليس إلا تفصحناً أو مبالغة في مشاعر مراهقة.

كبرنا ووجدنا كيف تعجز الكلمات عن التعبير عن حقيقة مأساتنا من واقعنا الذي يتجاوز اللامعقول، يتجاوز الخيال، يتجاوز خيال الخيال. وللأسف الكل يسير ولا يدري أين يسير، ويظن أنَّهُ يسير على طريق عادي، فيما هو يسير على جثث؛ الكرامة، الشهامة، الأخلاق، الجمال، الهوية... وما يحسبه أنهار ماء ما هي إلا أنهار مياه وجه أمتنا وقد أريقت على التراب وصارت أنهاراً...

كيف يمكن أن يستقيم العقل مع نفسه ونحن نرى بوضوح عداء المرء لنفسه؟

قد نجد مجنوناً أو أحمقاً يعادي نفسه. نعم. عندما يكون أحمقاً أو مجنوناً فلا نترقب منه إلا ما يقفز فزق جدار العقل والمنطق، وأن يعادي المرء نفسه ليس إلا وثباً فوق قواني العقل والمنطق.

ولٰكن كيف يصح ذٰلكَ على أمَّة؟

أيعقل أن تعادي أمَّة نفسها؟

أيعقل أن تكون الأمة كلها حمقاء مأفونة؟

هٰذه هي حقيقة العرب اليوم بعيداً عن أي افتراء.

ليس الحكام العرب وحدهم أعداء أمتهم، ولٰكنَّ الشعب العربي عدو نفسه أيضاً. وكلاهما أمر لا يستقيم مع العقل ولا مع المنطق ولا مع الأخلاق... الحكام بالجملة والمفرق أعداء الأمة العربيَّة أمَّةً وشعباً وتاريخاً وماضيا ومحاضراً ومستقبلاً. والشَّعب العربيُّ خانعٌ لا مسالمٌ، مستسلمٌ لذلٍّ يذيقه إياه الحكَّام من دون شفقة ولا رحمة.

من أين نبدأ وأين ننتهي في تفاصيل هٰذه الجريمة التي لا يمكن أن يصدقها عقل؟

وقفنا في هٰذا الكتاب عند بعض المشاهد العامة والتعريضية ولم نقف عند كل ما يخزي في سلوك وأفعال وقرارات وممارسات الحكام العرب وتخاذل الشَّعب العربي لأنَّ ذٰلكَ في تصوري يحتاج إلى مجلدات لا محض بضع فصول كتاب صغير هي مقالات طويلة أو قصيرة فرضها الوجع أكثر مما وقف وراءها تتبع ومتابعة.

الحقيقة أن مقالات هٰذا الكتاب في أصلها بذور مشروع كبير انطوى تحت العنوان ذاته: العرب أعداء أنفسهم. كانت النية بحثاً موسَّعاً لجوانب كثيرة وكبيرة من عداء العرب لأنفسهم؛ حكاماً وشعوباً، عبر تاريخنا المعاصر من الاستقلال أو ما سمي الاستقلال وحَتَّى وقتنا الراهن. ولٰكنَّ المتابعة كشفت عن مأساة أكبر من أن توصف، وأصعب من أن يتم حصرها وجمعها في كتاب واحد. إنها تحتاج إلى موسوعة كبيرة لا صغيرة.

كل حاكم عربي يحتاج إلى كتاب يفضح تاريخه في معاداة العرب والإسلام ومحاربة العرب والإسلام. عندما أقول حاكم أعني كل حاكم بشخصه لا بنظامه الذي قد يكون بسلسلة حكام تقل أو تكثر.

الآفة التي تقف أمامناً بحدَّةٍ هي أنَّ معظم الأنظمة ما زالت هي ذاتها منذ الاستقلال بل منذ خروج الاستعمار الأوروبي من العالم العربي. وما تغير من هٰذه الأنظمة انقلاباً على سلطة ما بعد الاستقلال لم أكثر شرفاً أو وجداناً من سابقه فيما يخصُّ معاداة العرب والإسلام. ورُبَّما بعضها فاق من سبقه في هٰذه المعاداة. وهٰذا ما سيؤدِّي بالضَّرورة إلى تعذُّر الكشف عن الوثائق والحقائق المخفيَّة من جهةٍ أولى. وصعوبة نشر ما انكشف منها لأنَّ ما انكشف خطير إلى حدٍّ لا يطاق لأن مقصِّات

الرقباء لن تسمح بمرورها. أما المسألة الثالثة التي تتجاوز الأمرين السابقين فهي أنَّ العصبيَّة العمياء عند عبيد هؤلاء الحكام تجعل من الصُّعوبة البالغة بمكانٍ الكشف عن الحقائق. يمكن أن نتفهم التَّعصُّب الأعمى لحاكم على رأسه عمله؛ نفاقاً أو خوفاً، ولٰكنَّ كيف يمكن أن أتفهم تعصُّباً أعمى لحاكم خان الأمة ومات منذ عشرات السِّنين؛ لا يتقبلون أي نقدٍ أو فضح لحقيقته!! أمر إن لم يكن مستحيلاً فمن الصُّعوبة البالغة قبوله أو تصديقه.

الحقيقة أنَّ المعطيات مؤلمةٌ وجارحةٌ أكثر مما نتخيل. ولذلك فإنَّ كلَّ ما سنفعله في هٰذا الكتاب ليس إلا عجالةً نلقي من خلالها الضَّوء على مشاهد إلماحيَّة لا أكثر. كانت من خلال أحد عشر فصلاً أو مقالاً في فصل.

كيف دخلنا القرن العشرين وكيف خرجنا منه هو موضوع الفصل الأول. والفصل الثاني حمل عنوان الكتاب: العرب أعداء انفسهم. وكان الفصل الثالث للخدعة الفظيعة التي صنعها الحكام العرب حول حرصهم على العروبة والوحدة العربية فيما هم في حقيقة الأمر وبالأدلة والحقائق الدامغة أعدى أعداء الوحدة العربية بل أعداء العرب والعروبة ماضيا وحاضراً ومستقبلاً. وتفسير ذٰلكَ في الفصل الرابع الذي حمل عنوان الحكام العرب وعقدة الزعامة؛ عقدة الزعامة هي التي تتحكم بالحكام العرب وتجعلهم يتصارعون ويحاربون بعضهم بعضاً ويحاربون العرب والعروبة والوحدة العربية. الأمر الذي أدى إلى موضوع الفصل الخامس الذي حمل عنوان أزمة النظام الإقليمي العربي. وأزمة النظام الإقليمي العربي هي ذاتها نسخة موازية للعقلانية السياسية العربية؛ هٰذه العقلانية التي تتنافى مع كل

أنـواع العقلانيـة والعقـل والمنطـق في آن معـاً. الأمـر الـذي أدى إلى تـراكم هـزائم ومخـازٍ متنوعـة تنوعـاً عجيبـاً غريبـاً جعلتنـا نطـرح سـؤالاً كبـيراً: مـتى يستفيد العـرب مـن دروس التـاريخ؟ كـان لهـذا موضـوع الفصـل التـالي. والـذي يبـدو أنَّ الأمـر فـوق إرداة الأنظمـة والحكـام العـرب الـذي يـرون ويعرفـون ولٰكـنَّهُم في حقيقـتهم أعـداء حقيقيـون أصـلاء للأمـة العربيـة، ولـذٰلك تـدافعوا للتطبيـع مـع الكيـان الصـهيوني تـدافعاً عجيبـاً غريبـاً يضـع العقـل في الكـف. فهـل بعـد ذٰلـكَ سيكون مـن الممكـن أن يكـون لقمـة الزعمـاء العـرب أي قيمـة أو نتيجـة أو فائـدة؟ وقفنـا عنـد تفاهـات القمـم العربيـة في الفصـلين الآخـرين للحـديث في آخـر قمتـين عـربيتين ومـا كـان وصـار في ترتيـب القمـة وتوقـع نتائجها.

كلُّ ذٰلكَ يبدو سلسلةً منسجمةً متداخلةً مع بعضها بتفاعلٍ خلاقٍ عجيبٍ. كلُّ الأنظمة العربيَّة نسخةٌ واحدةٌ من العداء للعرب والعروبة والإسلام؛ تبدو لهٰذه الأنظمة فيما بينها بحالة صراع ولٰكنَّهَا في حقيقة الأمر متآلفةٌ منسجمةٌ مع بعضها تمثِّل على الشَّعب العربي ببراعةٍ منقطعةٍ النظير... كذب كلُّ ما يقال عن العداء بَيْنَ السلاطين والحكام العرب، كلُّه تمثيلٌ بتمثيلٍ. ولا بُدَّ أن يأتي اليوم الذي يظهر فيه تمثيلهم لهٰذا وخداعهم... تمثيلهم بأنهم يختلفون لصالح قضايا الأمة أو لصالح شعوبهم... كلهم أعداء شعوبهم وأعداء مستقبل هٰذا الشَّعب العربي وكرامته وحريته.

ولكن السُّؤال الجدير بالطَّرح بعد كلِّ ذٰلكَ هو: هل فات القطار؟

بكـلِّ تفـاؤلٍ أقـول: إنَّ الفرصـة مـا زالـت قائمـةً، ولٰكـن يجـب أن يتحـوَّل العـرب كـلُّ العـرب: كبـار المسـؤولين قبـل صـغار المـواطنين إلى خليَّـة

عملٍ صادقةٍ مخلصةٍ مستنفرةٍ دؤوبة. فالتاريخ لا يرحم أبداً، ولا ينسى أبداً، ولا يماري أبداً، ولذلك يجب أن نترك لأبنائنا ما يلجم ألسنتهم عن لعننا وعن التبرؤ منا.

وإذا كان الأمل مقطوعاً من الأنظمة والسَّلاطين فإنَّ الشَّعب العربيَّ قادرٌ على صنع المعجزات إذا هو أراد. وليكن في ذهن الجميع أنَّهُ لا مجال لنتيجةٍ مرجوَّةٍ ما لم يقف الشعب العربيُّ كلُّه متعاضداً مع بعضه بعضاً لأنَّ الحكام والسلاطين متآلفون فيما بينهم متوافقون ولن يسمحوا لأي شعبٍ أن ينتصر على طغاته ليفتح بذلكَ الباب أمام الشُّعوب العربية الأخرى. لا يمكن للعرب أن ينتصفوا ما لم يكونوا يداً واحدةً؛ هذه حقيقة لا أظنها باطلةً أبداً... ولا أظنُّ أبداً أنَّ عكسها يمكن أن يكون.

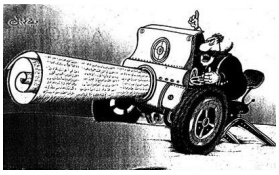

الفصل الأول

العرب

كيف دخلوا القرن العشرين وكيف خرجوا منه

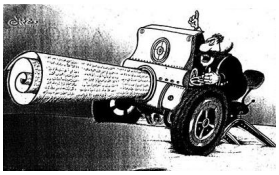

كثيراً ما يستفزني أولئك الذين يحسنون الظَّن أو ينظرون بعين الإعجاب والرِّضا إلى ما أنجزه العرب في القرن العشرين. لأنَّهم يخلطون خلطاً مدهشاً بَيْنَ الإنجاز الإرادي والإنجاز القسري، بَيْنَ ما أنجزناه نحن وبَيْنَ ما فرضه علينا الواقع الحضاري العالمي... لست متشائماً في ذَلكَ، ولا باخساً حقًّا، فالواقع والوقائع هي التي تكشف عن الحقائق، والحقيقة قاسية، مرَّة.

نعم دخلنا القرن العشرين ونحن نعيش في غياهب الجهل ومتاهات التَّخلف التي كانت تلبسنا من ساسنا إلى راسنا في ظلِّ الاحتلال العثماني، وخرجنا منه ونحن نعايش لا نعيش معطيات عصر العولمة؛ الاقتصاديَّة والثقافية والسياسيَّة والإعلاميَّة ... في كلِّ بيتٍ طبقُ استقبال فضائيٍّ، وبافتئات على الحقِّ والواقع: في كلِّ بيت حاسوب، وأمام كلِّ بيت سيارة ... ولٰكن ما الذي أنجزناه من كلِّ ذَلكَ؟ وماذا كان للعرب بَيْنَ المدخل والمخرج؟

إنَّ المعطيات مؤلمةٌ وجارحةٌ !!

ونحن إذ نحاول استعراض المشهد العربي خلال القرن العشرين الذي غادرناه منذ سحابة الشهر ونصفه، فإنَّنا لا نقصد التعداد ولا الإحصاء، وذَلكَ لسببين:

أولهما نافلٌ، وهو أنِّي لست مختصًّا في ذَلكَ.

وثانيهما وجيهٌ، وهو أنَّ هذه المهمَّة شاقَّة وعسيرةٌ لطولها ومرِّ طعومها.

ولذلك فإنَّ كلَّ ما سنفعله في هٰذه العجالة هو إلقاء الضَّوء على مشاهد إلماحيَّة لتاريخ العرب في القرن العشرين.

إخال، ولا أجزم في ذٰلكَ، أنَّ أكثر ما يمكن أن يفخر به العرب في هٰذا القرن هو تأهُّلهم عدَّة مرَّات إلى نهائيات كأس العالم لكرة القدم، وفوزهم بعدَّة ميداليَّات متنوعة المعادن في الألعاب الأولمبيَّة، والتَّآزر العربي في حرب رمضان/ تشرين، على الرُّغم من أنَّ **جلالة الملك حسين بن طلال** قد أبرق لـ **غولدمائير** قبل ثلاثة أيَّام من الحرب ليحذِّرها حتَّى لا تؤخذ على حين غرَّة، وعلى الرُّغم أيضاً من أنَّه ركب طائرته الخاصَّة وذهب إلى الأرض المحتلة ليؤكِّد مخاوفه لها لأنَّها لم تصدقه على الهاتف.

وثمَّة أمورٌ مشتبهات أحار في تصنيفها، وهي:

أولاً: محاولةُ العراق ابتناءِ قوَّة عسكريَّة ضاربةٍ واستجرارُ جيوش العالم كلِّها، بما فيها الأشقاء العرب، لاجتثاث هٰذه القوة من جذورها.

ثانياً: تأميم قناة السويس، ثمَّ توسيعها لتسهيل نقل النفط العربي إلى أمريكا وأوربا الغربيَّة. وبالعكس أيضاً لتسهيل نقل القواعد العسكرية الأمريكيَّة إلى المنطقة العربية.

ثالثاً: استرجاع سيناء بما في الوجه من ماء لا بالدماء، الأمر الذي أصبح الآن نصراً مؤزَّراً وسبقاً فكريًّا وحضارياً.

رابعاً: محاولة توحيد ساقية الذهب/ الصحراء الغربيَّة مع المغرب، على الرَّغْمِ من معارضة معظم الدول العربية لهٰذه الوحدة. تماماً مثلما مرَّت الوحدة اليمنيَّة مرور سحابة صيف، وعندما دقت طبول الانفصال استسهل معظم الحكام العرب التفنن في تأييد الانفصاليين.

خامساً: تعطُّش أحد الحكام العرب، وهو **القذافي،** للوحدة العربية تعطشاً مدهشاً أوصله إلى حدِّ الوله بالوحدة أي وحدة، حتَّى وإن كانت مع دولةٍ غير عربيَّة، بل حَتَّى ولو مع دولة في الخيال؛ المهم أن يقال إنَّهُ استطاع أن يتوحد مع دولة أخرى... التجارة بالوحدة مربحة أكثر من الخيال ولذلك لم تتحقق حَتَّى تظل تجارة السلاطين الرابحة.

وماذا في الجعبة أيضاً ؟

لقد **دخلنا** القرن العشرين ونحنُ أمَّةٌ واحدةٌ، وخرجنا منه ونحن نحو ثلاثين أمَّة.

دخلناه ولا حدود بَيْنَ أقطارنا وأمصارنا، وخرجنا منه والأسلاك الشَّائكة تحجب الأخ عن أخيه من أمِّه أو أبيه أو كليهما، وكأنَّ بَيْنَنا حروباً داميةً.

دخلناه وأرضنا كلٌّ واحدٌ غير مجزَّأ لكلِّ العرب، وكلُّ قادمٍ من غير العرب إمَّا أن يكون ضيفاً يكرم أو عدواً لا يهنأ ساعةً، وخرجنا منه وأرضنا قرابة ثلاثين جزيرة متفاصلة عن بعضها متواصلة مع غيرها؛ الأجنبيُّ فيها هو العربيُّ والعزيز فيها هو غير العربي، وغير العربيِّ يدخلها عزيزاً مكرماً شامخ الرَّأس لمجرَّد أنَّه غير عربيٍّ. ولا يستطيع العربيُّ دخولها إلا بجواز سفر أوَّلاً ثمَّ بالقدرة على النَّجاة من محاكم التَّفتيش[1].

دخلناه بعملةٍ نقديَّةٍ واحدةٍ وأوروبا بعشرات العملات، وخرجنا منه بعشرات العملات وأوروبا بعملةٍ نقديةٍ واحدةٍ.

(١) . بهذا المعنى، عندما وافقت الجامعة العربية على انضمام جزر القمر إلى الجامعة العربية علق جريدة السياسة

خضنا أكثر من مئة معركة لم نبادر في واحدةٍ منها أبداً، ودُفعنا إلى المبادرة في واحدةٍ هي التي أخرجنا بها محتلاً واحداً هو المحتل العثماني، ولكن لتُغْتَصَبَ أمتنا من كلِّ فجَّار الأرض وفاسقيها.

هدرنا وخسرنا، من دون أي جدوى، منذ بداية الثورة النفطيَّة وحتَّى نهاية القرن العشرين، نحو أربعة تريليون دولار، (والتريليون للعلم هو الواحد الذي يسبقه اثنا عشرة صفراً فقط) التي يكفي عشر عُشْرُها بل أقل من عشر العُشْرِ، لتأهيل البنية التحتية في الوطن العربي أفضل تأهيل.

ظللنا منذ مطالع القرن نرسل بالنوابغ من أبنائنا ليستفيدوا من علوم الغرب ويبنوا وطننا، ولٰكنَّ الذين عادوا منهم قلَّة، ومن عاد منهم إن عاد بنبوغه ظللنا نلاحقه بالأذى حتَّى يكرهنا ويحقد علينا ثمَّ يفرُّ منَّا عائداً إلى الغرب ليغنيهم بخلاصة فكره وعصارة عقله وعزيز إبداعه، وأقل الأرقام التي نعرفها هي مئات الألوف، وكثير منهم على أقصى درجات الأهمية. **والمضحك المبكي أنَّا كلَّ يوم: نندب، ونبكي، ونكاد نلطم الأوجه ونشدُّ أشعار الرَّؤوس أسفاً على العقول العربيَّة النَّازفة !!**

دخلناه ونحنُ متخلِّفون عن ركب الحضارة والعلم ما قُدِّرَ بنحو عشر سنوات أو عشرين سنة على أبعد تقدير، وخرجنا منه والمسافة التي تفصلنا عن الرَّكب ذاته لا تقلُّ عن مئتي سنة في آخر تقدير سابق للعولمة التي حرقت وحدها مراحل جدَّ طويلة وأخَّرتنا أشواطاً مضاعفة.

دخلناه ونحنُ أحرارٌ، ننتقد ما نشاء ومن نشاء ولا نخشى في الحقِّ لومة لائم، ثمَّ صارت سلطة الاحتلال تطاردنا وتعاقبنا، ثمَّ صارت السُّلطة التي هي من لحمنا وشحمنا ودمنا هي التي تقمعنا وتسحقنا، وسنخرج من القرن العشرين ونحن

مقموعون من ضمائرنا ذاتها التي تحولت إلى رقيبٍ مقولبٍ بأوامر السلطة وتعليماتها وتوجيهاتها.

دخلنا ... دخلناه وطموحاتنا التَّنويريَّة والنَّهضويَّة والثَّوريَّة لاتحدُّها حدود، وخرجنا منه وغاية طموحاتنا أن لا يزداد عدد دولنا العربيَّة، وأن لا يزداد الشرخ والاختلاف بَيْنَ هٰذه الدُّول ... بل ... بل غاية طموحاتنا أن لا يكون اليوم القادم أسوأ من اليوم المنصرم !!!

دخلناه ... دخلناه عرباً وخرجنا منه أعراباً.

دخلناه ونحن نعبد إلهاً واحداً وخرجنا منه ونحن نعبد عشرات الآلهة.

دخلناه والعقل بعض مكوِّناتنا وخرجنا منه وبعض مكونات العقل أهم مطلوباتنا.

هٰذه بعضُ بعضٍ أهمِّ ملامح الأمَّة العربية في آخر مئة عام منصرمة من عمرها. أقول بعض بعضٍ لأنَّ السَّرد يطول بنا، والمخازي يندى لها الجبين، والفضائح تثل أعزَّ عرين، وما ذكرناه كان مما أعلن وظهر لا مما خفي وأخفي.

وماذا في الجعبة أيضاً ؟ آمل لو أنَّ المفاخر العربيَّة التي تطيل الأعناق في هذا القرن المنصرم ... تملأ متون الكتب وهوامشها وحواشيها، لو تعجز عن وصفها الكلمات والأسماء، لو تضيق أمامها الفضاءات والأشياء، لو يضيق عن حصرها العدُّ والاحتواء. ولٰكن هذا ما خطر في بالي منها... وأن أكون إحصائيًّا مخفقاً في هٰذا الأمر خير لي ألف مرَّة من أن أكون دقيقاً، سيَّان زدت أم أنقصت، فالزيادة دليل حسن الظَّنِّ مني في أمَّتي، والنقصُ دليلٌ على أن أمتي فوق سوء ظنِّي، وكلا الأمرين سارٌّ لي.

ولكن السُّؤال الجدير بالطَّرح بعد كلِّ ذٰلكَ هو: هل فات القطار؟

العرب أعداء أنفسهم

بكل تفاؤل أقول: إنَّ الفرصة ما زالت قائمة، ولكن يجب أن يتحول العرب كلُّ العرب: كبار المسؤولين قبل صغار المواطنين إلى خليَّة عمل صادقة مخلصة مستنفرة دؤوبة. فالتاريخ لا يرحم أبداً، ولا ينسى أبداً، ولا يماري أبداً، ولذلك يجب أن نترك لأبنائنا ما يلجم ألسنتهم عن لعننا وعن التبرؤ منا.

٢٠٠٠/٢/١٣م

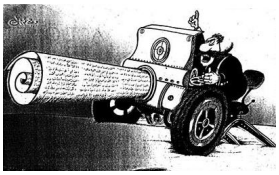

الفصل الثاني
العرب أعداء أنفسهم

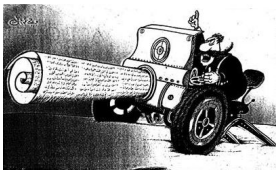

لا شكَّ في أنَّ فهم المختص لأمور اختصاصه أميز من فهم غير المختصِّ، وتحليل المفكِّر أعمق من تحليل العوام وأبعد غوراً، ولٰكن هل يجب أن يكون التباين أو الاختلاف قائماً بالضَّرورة؟ أحياناً كثيرة أفضل الانضمام إلى عامَّة النَّاس حتَّى ولو أخرجني ذٰلكَ من نعمة الاندراج في فئة المثقفين، وغالباً ما يكون ذٰلكَ عندما يتعلَّق الأمر بالواقع المأساوي المرِّ لأمتنا.

من هٰذا الموقع أُردِّد مع عامَّة الناس أنَّه لم تمر أمَّتا العرب والإسلام عَبْرَ التَّاريخ كلِّه بواقعٍ أو حالةٍ من السُّوءِ والضَّعفِ والتَّشرذمِ والتردِّي مثل أو أكثرَ مما هي عليه الآن. ونطفق في التَّساؤل عن الأسباب التي أوصلتنا إلى هٰذه الحالة المزرية من التَّردِّي والانقسام ومعاداة بعضنا بعضاً، وتكثرُ الإجابات وتتعدَّدُ، ويحار المرء في الخيار بينها خاصَّةً وأنَّ لكلٍّ منها ما يؤيدها من الحجج، بل ويعجب ويدهش لأنَّ لكلٍّ منها ما يدحض فاعليتها، بل ويشلها:

فإذا كان السَّبب كون الغرب أعداء العرب والإسلام متكاتفاً ضدنا ومتآمراً علينا، وهٰذا سبب لا يخلو من الوجاهة ولا يفتقر إلى المصداقية، مع التَّحفظ على آليَّة التآمر والعداء، فإنَّ في وضوح هٰذا العداء ما يجب أن يدفعنا إلى التكاتف والتآزر لمواجهة المخاطر التي تهدِّد هويَّة الأمَّة ومصيرها... ولكنَّنا على الرُّغم من ذٰلكَ، على ما امتدَّ من سحابة نصف القرن المنصرم من عمر الأمَّة، وهي حقبة استقلال الدُّول العربيَّة عن الاستعمار، لم نَزدَدْ إلاَّ تباعداً وتنافراً وتباغضاً؛ نفتح حدودنا أمام

الأجانب الأغراب ونوصدها بشدَّةٍ أمام الأشقاء، حتَّى علَّقت صحيفة السِّياسة الكويتيَّة عشية موافقة جامعة الدُّول العربيَّة على انضمام دولة جزر القمر إليها تعليقاً مفعماً بالسخرية يقول: «لقد خسرت جزر القمر كثيراً بانضمامها إلى جامعة الدول العربية، فقد كان بإمكان مواطنيها الدخول إلى أيِّ دولةٍ عربيَّة بسهولةٍ ويسرٍ، أمَّا الآن فقد بات الأمر شبه متعذَّر!!!».

وإن كان الأمر في التَّخلف الذي يقصِّر أعناقنا ويحطُّ من قدرنا، وهو حقيقة نعجز عن نكرانها، فإنَّ فيه ما يفرض علينا السَّعي بكلِّ الوتائر والإمكانات لتحصين أنفسنا وأمتنا من أن نلفظ خارج التَّاريخ في خضم تسابق الأمم في اعتلاء سلم الحضارة والمدنية... ولكنَّنا مع شديد الأسف لم نتقدَّم، بل لم نستقر في مكاننا، بل... بل لم نتقهقر قليلاً، لقد تقهقرنا أكثر من الكثير، لقد كان الفارق الحضاري/ العلمي بَيْنَ العالم العربي وأوروبا وأمريكا مع مطالع القرن المنصرم لا يزيد عن عشرين سنة، ومع بداية العقد الأخير من القرن ذاته تضاعف الفرق ليتجاوز الأربعمئة سنة. وللأسف أيضاً، بل لمزيد من الخجل، فإنَّ الدول التي نالت استقلالها في وقت متزامن مع الدول العربية، وعلى الرَّغْمِ من تواضع إمكاناتها ومواردها، قد استطاعت أن تناطح الدول العظمى في كثيرٍ من ميادين الصناعة والعلم والتِّقانة ... فيما نحن، وأرجو أن تخونني معرفتي هنا، ما زلنا عاجزين عن مواكبة التَّعامل الاستهلاكي مع تلك المنجزات.

وإن نسبنا الأمر إلى الإمكانات والموارد لضحك على حمقنا الحمقى لأنَّ بلداً واحداً مثل هولندا، التي لا تزيد مساحتها عن مساحة أحد سهول سوريا، يفوق دخلها مجموع مدخولات الوطن العربي، فكيف

سيكون الأمر لو تحدَّثنا عن الإمكانات المذهلة التي يمتلكها الوطن العربي؟! ولن ندرج النفط فيها لأنَّ محض دخول النِّفط في الحديث سيثير الحساسيات والتوترات، وحسبنا أن نشير إلى أنَّ الكفاءات العلميَّة العربيَّة المهاجرة أو النَّازفة تشكِّل محوراً مهمًّا من محاور التَّقدُّم العلميِّ في أوروبا وأمريكا، وكذلكَ الأراضي الشَّاسعة الخصبة المليئة بالدِّفء والجمال التي يكفي بعضها لتغذية العالم لا الوطن العربي وحده، ولٰكنَّ الأكثر إذهالاً هو أنَّنا نستورد معظم غذائنا بالعملات الصَّعبة ونراكم الديون علينا، ونزيد القيود التي تلتفُّ حول أعناقنا!!!

كنَّا نريد أن نفتح باب الأسباب التي جعلت من أُمَّتي العرب والإسلام على ما هم عليه من التَّردِّي والانقسام وعدم وجود أيِّ تعاون جدِّيٍّ ... وإذ بنا نفتح كوة على لظًى متأجِّجٍ يلفحنا بألسنة علامات الاستفهام والتَّعجب...:

أيعقل ألا نعرف من هو عدونا؟

من هو خصمنا؟

من هو الذي يهدِّد مصالحنا ويحول دون تحقيقها، على الرُّغم مما هو عليه العالم من انكشاف ووضوح؟؟!!

وحتَّى لو لم يكن ثمَّة عدوٌّ يتربَّص بنا كما يحلو لبعضهم أن يتخيَّل ويخيِّل ويعتقد؛ أفيعقل ألا نعرف من هو شقيقنا؟

من هو صديقنا؟

ومن ثَمَّ أيعقل ألاَّ ندرك ضرورة التَّكاتف والتآزر على ما هي عليه هٰذه الضَّرورة من البداهة، ناهيك عن كثيرٍ من الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة التي تحضُّنا على التآخي والتَّعاضد والتآزر؟!

أكاد أعتذر لأنِّي لجأت إلى الاستفهام بلفظ (أيعقل) لأنَّ اللامعقول وحده هو الذي يتسع صدره لوصف وضع العرب في نحو نصف القرن المنصرم من تاريخهم، ولكنَّ هٰذا اللامعقول، أي ما ليس في مكنة العقل أن يعقله، أو يتصوَّره، أو يتخيَّله؛ واقعٌ حقيقيٌّ. وهٰذا ما لم تستطع فلسفة فيلسوفٍ، أو خيالاتُ شاعرٍ... إثباته أو تصديقه، ولو أنَّ **هيجل** الذي قال إنَّ: «كلَّ معقولٍ واقعٌ، وكلَّ واقعٍ معقولٌ» شاهد الواقع العربيَّ لشكَّ في عقله وتنكَّر لحكمه السَّاذج هٰذا. بل لو أنَّ فلاسفة اللامعقول عاينوا الواقع العربي لأقروا بأنَّ اللامعقول الذي تحدَّثوا فيه لا معنى له أمام واقع أمَّتنا الذي لا يعرف سوى معقولٍ واحدٍ هو أنَّ اللامعقول قد صار معقولاً بل صار واقعاً.

الحقيقة الوحيدة التي تفسِّر هٰذه المفارقة هي أنَّ العرب؛ عرب العصر الراهن، أعداء أنفسهم!!

وهل يمكن أن يكون ذٰلكَ؟!

وكيف يكون المرء عدو نفسه؟!

وكيف تكون الأمَّة عدو نفسها؟!

أسئلةٌ حاصرتني قرابة عقدين من الزمان، ورافقتها ظروفٌ كثيرةٌ فرضت على حكمي هٰذا أنْ يظلَّ أسير جدران صدري حدساً يعذبني. وليست ثورة المعلومات وانكشاف الحقائق هي التي حفزتني على إخراج هٰذا الحكم الحدس، وإنَّما هو استفزازٌ لا يخلو من الطرافة:

خصصت حلقة يوم الأربعاء ٢٠٠٠/٤/٢٦م، من برنامج "بلا حدود" على قناة "الجزيرة" للقاء أشهر مؤرخي الحرب العالمية الثانية في العالم، وهو **ديفيد إيرفنك** ـ David Erving. ولأنَّه من المهتمين

بالقضايا العربيَّة والمدافعين عنها فقد انطلق الحوار من وحي هٰذا الاهتمام، ويكفينا من هٰذا الحوار جوابه عن سؤال واحدٍ فقط هو: ماذا قَدَّمَ لك العرب من مساعدة وأنت تخدم قضاياهم؟

كان الجواب أكثر من مخيِّبٍ للآمال، وأكثر من مذهلٍ، فقد قال:

«**العرب أعداء أنفسهم، ليس عندهم أيُّ إحساس بالهوية**».

وتابع قائلاً: «أنا لا أنتظر العرب، لأنِّي أبحث عن الحقيقة. لٰكن يفترض، لكون الموضوع يهمهم ـ أي أبحاثه ـ، أن يعتنوا به».

ومن مظاهر عدم مبالاة العرب بما يخدمهم وبمن يدافع عنهم أنَّ **ديفيد إيرفنك** يكتب في القضايا العربيَّة ويدافع عنها منذ الستينيات، وله في ذٰلكَ نحو ثلاثين كتاباً لم يترجم إلى العربيَّة واحدٌ منها.

لن نناقش هٰذا المفكر في الأسباب التي أوجبت له حكمه في أنَّ العرب أعداء أنفسهم، ولٰكنَّي لا أظنه على هٰذه الدَّرجة من السَّذاجة كي يتَّخذ من عدم اهتمام العرب بكتبه وأبحاثه سبباً لعدِّهم أعداء أنفسهم، ولا أظنُّ كذٰلكَ أنَّه استند إلى عدم مساعدة العرب له حتَّى قسا عليهم هٰذه القسوة، فهو يؤكِّد أنَّه لا ينتظر مساعدةً من أحد، ويؤكِّد أنَّه يبحث عن الحقيقة ويدافع عنها ... ومن الحقائق التي وصل إليها أنَّ العرب أعداء أنفسهم، والوقائع والأحداث التي تؤكِّد هٰذه الحقيقة، لبالغ الأسف وشديده، أكثر من أن تعدَّ أو تحصى، وما خفي منها أكثر وأعظم مما ظهر وانتشر، ولا شكَّ في أنَّه استند إلى هٰذه الحقائق التي تستحقُّ أن تفرد لها كتب لا مقالات.

صحيحٌ أنَّ أعداء العرب غير قلَّةٍ، وليس العرب وحدهم من لهم أعداء، وهٰذا بحكم طبيعة الوجود، إلا أنَّ هٰذا العداء، بما هو طبيعيٌّ وربَّما

ضروريٌّ، لا يعني إلاَّ أنَّ عجلة الحياة البشريَّة تسير على نحوٍ منطقيٍّ، عقليٍّ. ولٰكنَّ اللامعقول، وغير المنطقي أن يكون المرء عدوَّ نفسه. وإذا كان من الممكن أو السَّهل الاحتراس من الآخر إذا عدوًّا فكيف يمكن الاحتراس من الذَّات، أو كما قال الشَّاعر:

كَيْفَ تُرَى احْتِرَاسِيْ مِنْ عَدُوِّيْ
إِذَا كَانَ عَدُوِّيْ بَيْنَ الضُّلُوْع؟؟!!

تُرى أيكون السبب هو الجهل، الجهل الذي وصفه **صالح بن عبد القدوس** بقوله:

لا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ
مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

أيًّا كانت الأسباب التي جعلت من العرب أعداء أنفسهم فإنَّ النَّتيجة واحدةٌ هي أنَّ العرب أعداء أنفسهم، هٰذه النَّتيجة التي لا يقرِّها منطقٌ ولا عقلٌ، بل هي اللامعقول عينه، بل المعقول معقول أمامها، وكيف يمكن أن يعقل أن يكون المرء عدو ذاته بملء عقله وحريته وإرادته؟!! وتجليات ذٰلكَ بطبيعة الحال لا يمكن أن تكون من المعقول في شيء، أبسطها أنَّنا سنكون الأمَّة الوحيدة في التاريخ التي تفضل الهوان على العزة على حدِّ تعبير السيناتور الأمريكي **فولبريت** يقول:

«إنَّ المصلحة الرئيسة للولايات ترتبط بالنِّفط العربيِّ... إنَّ مصلحة الولايات المتحدة الرئيسة بالنِّفط العربي مسألة ضرورةٍ اقتصاديَّةٍ حيويَّةٍ مهمَّةٍ وملحَّةٍ... إنَّها اكثر إلحاحاً بالفعل مما يستطيع تصوره أيُّ خبيرٍ من

خبراء الطاقة اليوم... **ولكنَّهُ من الجدير بنا أن نلاحظ بعمق أنَّهُ إذا لم يستخدم العرب قوتهم الاقتصادية لتحقيق مصالحهم القوميَّة فسيكونون، في هٰذه الحال، الأمَّة الوحيدة في العالم، ولرُبَّما الوحيدة في التاريخ، التي تهاونت في فعل ذٰلكَ**»[٢]. ومن باب الوفاء أصرَّ العرب أو فضَّلوا أن يكونوا الأمَّة الوحيدة في التَّاريخ التي تفضل الهوان على العزة.

وإن كان مطعوناً في حكم عربي لأنَّه صاحب مصلحة، فهٰذا أيضاً حكم من هو في حكم العدو الذي ليس من مصلحته أبداً أن يكشف لنا عن مكمن من مكامن القوة، إنَّهُ المفكِّر البريطاني **بول جونسون** الذي جاء بعد نحو ربع قرن ليؤكِّد هٰذه الحقيقة عندما راح يعدِّد ما ضيعه العالمُ العربي بتداعيات متواترة توحي بالحسرة والألم، وكأنَّهُ هو أو أمَّته من أضاعت هٰذه الفرص، وذٰلكَ في قوله:

«لقد ضيَّع العالم العربيُّ فرصته الكبيرة التي سنحت له مع طفرة الازدهار النفطي. لقد كان بوسع العرب أن يطوِّروا أنفسهم. وكان بمقدورهم أن ينتقلوا بفكرهم إلى العصر الحديث. وكان بإمكانهم أن يستحدثوا نظاماً اقتصاديًّا وصناعيًّا خاصًّا بهم ... ولكنَّهُم لم ينجزوا هٰذه المهام، وأنا أتوقَّع أن يدخل العالم العربيُّ القرن الحادي والعشرين وهم أقلُّ أهميَّةً مما كانوا عليه في السَّابق»[٣]. وبالفعل لم

(٢) . من كلمة ألقاها في مدينة واشنطن بتاريخ ١٥/٤/ ١٩٧٥م.

(٣) . د. نبيل علي: **العرب وعصر المعلومات** . سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ١٨٤ . شوال ١٤١٤هـ/ نيسان / إبريل ١٩٩٤م . ص٢٨.

يخب هٰذا التوقُّع أيضاً، لأنَّ العالم كلَّ العالم يسير إلى الأمام، يتقدَّم، ونحن نسير إلى الوراء، نتأخَّر، نزاد تخلُّفاً، نزاد هامشيَّةً.

وليصبح العرب بهٰذا وبكثيرٍ غيره مدعاة للسُّخرية والتَّندر من الغربيِّين، ومن أبسط ما قيل هو ما جاء على لسان أحد السِّياسيِّين الغربيِّين عندما قال: «إنَّ سلاحَ إسرائيل الوحيد هو غباء أعدائها»؟؟ ورُبَّما هٰذا ما أراد التَّعبير عنه المخرج السينمائي اليهوديُّ **إيال سيفان** بقوله:

« **إسرائيل تعرف سيكولوجيا الوطن العربي ومن منطلق معرفتها تحاربه، ومأساة العرب هي الأَنظمة الدِّيكتاتوريَّة التي تضطهد شعوبها، مأساة العرب في أرضهم الجميلة المعطاء**»(٤).

ولعلَّ من الطَّرائف التي تستحقُّ الذِّكر هنا أنَّ العالم أجمعه كان يخاطب العرب، ويتحدَّث عنهم بوصفهم أمَّةً واحدةً، وكثيرون يُفضِّلون التَّعامل معهم بوصفهم أمَّةً واحدةً، فيما العرب وحدهم هم الذين يصرُّون على تكريس القطريَّة وتحذيرها، وفي الوقت ذاته يتَّهمون الغربَ بأنَّهُ هو الذي يكرِّسُ التَّجزئةَ ويَحُوْلُ دونَ التَّكامل والتَّعاون...!! حَتَّى فَرَضَ العربُ على الأمم الأخرى أن تتعامل معهم بأوصافهم القطريَّة. **لَقَد غابَ اصطلاح العروبة، والتَّكامل العربي ... الذي كان يملئُ كثيراً من الإذاعات العربيَّة ووسائط إعلامها حتَّى صار يحنُّ إليها غيرنا،** فهٰذا هو نائب وزير الخارجيَّة الرُّوسي **فيكتور بوسوفاليوك** يكتب مقالة عنوانها: « الحنين إلى الوحدة العربيَّة »(٥) يدعو فيها بقلبٍ لا يقلُّ عمق جرحه عن

---

(٤) . من لقاء أجرته معه إذاعة مونت كارلو بتاريخ ١٩٩٥/٥/١٧م.

(٥) . فيكتور بوسيفاليوك: **الحنين إلى الوحدة العربية** . ضمن صحيفة الحياة . لندن ، العدد ١١٧٨٠ . الأَربعاء ٢٤ أيَّار ١٩٩٥م.

جراحات القوميين المصدومين بواقع الشَّرذمة والتَّجزؤ العربي، إلى لَمِّ الشَّمل وتجاوز القطريَّة لنشعر بكرامتنا ونُسيِّجَ حياضنا.

أَليس غريباً أَن تأتي هٰذه الدَّعوة وهذه الأفكار من يهود، ومن روس، ومن إنجليز، ومن أمريكان، ومن إسبان ... في الوقت الذي تلاشت فيه مفردة الوحدة العربيَّة، والكرامة العربيَّة، وكلُّ ما يمتُّ إليهما بصلةٍ من الإذاعات العربيَّة وكأنَّهما شائنة أَو أَمر معيبٌ بتنا نستحي منه؟!!!

أيُّهَا الحكام ارحمونا، ارحموا أنفسكم، ارحموا أمَّتكم، واتركوا للأجيال اللاحقة فرصة أن يترحموا عليكم وعلينا. فأنتم من مادة التاريخ، وإن لم تبيضوا في التاريخ صحائفكم فلن يسمح لأحدٍ بتبييضها، لأنَّ التاريخ لا يرحم، ولا يماري.

دمشق في ٢٥/٦/٢٠٠٠م.

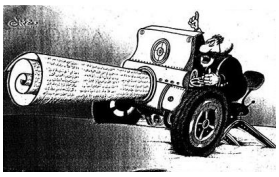

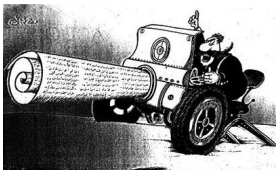

الفصل الثالث

العرب

قوميون بالمفرق انفصاليون بالجملة

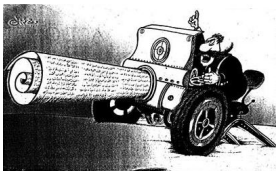

إنَّ الوقوف على أسباب عدم تحقُّق الوحدة العربيَّة يقتضي منا بالضَّرورة المنطقيَّة معرفة أعداء الوحدة والمتضرِّرين من قيامها أولاً، والرَّاهنيَّة التَّاريخيَّة للوضع العربيِّ والعالميِّ ثانياً. ذَلكَ أنَّ الأعداء والمتضرِّرين، بالضَّرورة التي لا تقبل الطَّعن، هم اللذين يتصدَّرون لائحة أسباب عدم تحقُّق هٰذه الوحدة.

وعلى الرُّغم من شبه التَّكافؤ بَيْنَ الأعداء والمتضررين؛ لأنَّ العداء يكون بسبب التَّضرُّر، والتَّضرُّر يؤدِّي إلى العداء، فإنَّ الحقيقة تقتضي الفصل بينهما؛ فالأعداء أعداءٌ بالجبلِّة والأصالة، والمتضرِّرون متضرُّرون بالعَرَضِ والوهم. أعني بذَلكَ أنَّ الأعداء من الخارج حَتَّى ولو لم يتضرَّروا، والمتضرِّرين هم الدَّاخل حَتَّى ولو لم يصبحوا أعداءً.

إنَّ أوَّل مشكلة تعترضنا في هٰذا السِّياق هي هويَّة العدوِّ الخارجيِّ؛ فالليبراليون والإسلاميُّون الشَّكليون كانوا يرون في الاتحاد السوفيتي ومعسكره العدوَّ الأوَّل للأمَّة العربيَّة ومن ثَمَّ لوحدتها، أمَّا الماركسيون وأبعاضاً من القوميين فكانوا يرون في الولايات المتحدة وعموم المعسكر الغربيِّ العدوَّ الأوَّل للوحدة. وليس من باب التَّوفيق ولا التَّلفيق أقول: إنَّ المعسكرين قد ناصبا الوحدة العربيَّة العداء، لأنَّ هٰذه الوحدة ستؤدِّي بالضَّرورة إلى الحدِّ من مصالح الآخرين في وطننا وفي العالم أيضاً. ولذَلك لا يجوز أن ننساق وراء خيالاتنا التي توهمنا أنَّ إنسانيَّة أمَّتنا ووحدتها لن تلحق الضَّرر بالآخرين... نحن لا نريد أن نلحق الضَّرر بأحدٍ، وهٰذه حقيقة، ولكنَّ وحدتنا، شئنا أم أبينا، ستحدُّ من مصالح الأقوياء في وطننا على الأقل. وهٰذا

بالنِّسبة لهم ضررٌ لا يقبلونه، وسيحاولون ما استطاعوا دون وقوعه. ولذلك لا يمكننا أبداً إنكار وقوف الغرب بالدَّرجة الأولى والجوهريَّة، والاتحاد السوفيتي بالجوهر والعرض، سبباً حاسماً في الحيلولة دون قيام الوحدة.

ولٰكن، ألا يعني هٰذا وقوعنا في مصيدة العقليَّة التَّآمرية؛ أي توهمنا بأنَّ العالم يتآمر علينا وهو بريء من ذٰلكَ...؟

على الرُّغم من شيوع فكرة العقليَّة التآمريَّة العربيَّة الآن، التي ترى أنَّ العرب يعلِّقون أخطاءهم على شمَّاعات غيرهم إذ يعزون أسباب إخفاقهم وضعفهم... إلى تآمر الغرب عليهم، فإنَّنا لا نستطيع أبداً إلا تأكيد أنَّ الغرب هو السَّبب الجوهريُّ في عدم تحقيق الوحدة، لأنَّ الوثائق والوقائع تثبت ذٰلكَ بما لا يقطع دابر أيِّ شكٍّ أو جدالٍ، ولأنَّ كثيراً من الأسباب المتبقيَّة مرتهنة به.

وهٰذا، في حقيقة الأمر، ما يشكِّل المساحة الأعظم من الرَّاهنيَّة التَّاريخيَّة للوضع العربي والعالمي؛ أعني وجود قوى عظمى في حالة ازدهارٍ تقانيٍّ واقتصاديٍّ وفكريٍّ مطردٍ، وليس من مصلحتها وجود قوى أخرى منافسة، ولا مشاريع قوى منافسة أو مزاحمة، سيان أكانت عربيَّةً أم غير عربيَّةٍ. وتكتمل هٰذه المساحة بتشرذم العرب وضعفهم وتخلخل بناهم الاقتصاديَّة والتقانيَّة والعلميَّة والفكريَّة وترهلها.

وعلى الرُّغم من ذٰلكَ كلِّه فأنا لا أدين الغرب، ولا أتوجَّه إليه بأيِّ لومٍ أو عتب على معاداته للوحدة العربيَّة، لأنَّ معاداته لها، وسعيه لإبقائنا ضعفاء متشرذمين هو حقُّهم والأمر الطَّبيعيُّ، وغير الطَّبيعيِّ هو سماحهم بوحدتنا واستقوائنا. ولذٰلك فإنَّ الإدانة واللوم والعتب والتَّعنيف أيضاً يجب أن توجَّه إلى **الحكام العرب** منذ الاستقلال وحتَّى الآن، لأنَّهم **أقاموا أنفسهم أوصياء على الوحدة والقوميَّة، بينما كانوا في حقيقة الأمر أعتى خصوم الوحدة وألد**

أعدائها. فقد أقاموا التَّعارض بَيْنَ الوحدة ومصالحهم التي كانت محض شخصيَّة، وغلَّبوا الشَّخصي على مصلحة الأمَّة على الرُّغم من أنَّ مصلحة الأمَّة ستعود عليهم بما هو أسمى من كلِّ ما يمكن تحقيقه من مصالح شخصيَّة، وهٰذه هي الحقيقة التي لم يدركها أيُّ حاكمٍ عربيٍّ.

إنَّ الحكَّام العرب، للأسف، «قوميون بالمفرق، انفصاليون بالجملة»، أعني أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يصدِّرُ نفسه لجماهيره والجماهير العربيَّة على أنَّه سيد القوميَّة العربيَّة وإمام المناضلين للوحدة وقدوتهم... ولكنَّ انتزاع الرُّوح منه أهون عنده من تنازله عن كرسيه من أجل الوحدة، أو حتَّى من أجل عودة كامل التراب العربي المغتصب. ولذٰلك عندما يجتمعون لا يتَّفقون إلاَّ على ما يكرس التَّجزئة ويثخن الجراح. فيما الجماهير مشلولةٌ، مخدَّرة بوعود حكامها الذين فرَّغوها من شحنتها النِّضاليَّة والثورية. بل إنَّ الشَّعب العربيَّ فيما يبدو على درجةٍ عاليةٍ من التَّخاذل والخنوع والاستسلام لإرادة الأنظمة الحاكمة في بلدانه؛ يسيرون على هواهم وأمزجتهم... ولعَلَّ أكثر ما يصدق عليهم وصفهم بأنَّهم ظاهرةٌ صوتيَّة... وليت أنَّهم ظاهرةٌ صوتيَّةٌ وحسب بل إنَّهُم ظاهرةٌ صوتيَّةٌ صدويَّةٌ وليست ظاهرة صوتيَّةً فاعلةً، أي تصدر الصَّوت، إنَّهُم صدى لصوت السلاطين ومواقفهم؛ إذا أخذت السلطة في بلد عربي موقفاً من دولةٍ أخرى سار الشعب وراء هٰذا الموقف من دون نقاش أو فهم أو نقد حَتَّى ولو جر عليهم الويلات والثبور... ولا تحتاروا في الأمثلة، ارجعوا إلى مواقف كلِّ الدول العربية وتغيراتها وتغير أمزجة الشعوب سيراً وراءها حذو الحافر بالحافر.

كيف تتحقَّق الوحدة العربيَّة ولم تُرَقْ قطرة دم من أجلها، فيما آلاف المعتقلين، وبراميل الدِّماء قد أريقت من أجل تكريس التَّجزئة؟! كيف يمكن أن

تتحقَّق وأرباب الفكر القومي يتفنَّون في التَّنظير، وعندما يدعو داعي الجهاد أو التَّضحية أو الفداء يتفننون في الهروب والأعذار ؟!

إنَّ أسباب الإخفاق في تحقيق الوحدة أكثر مما ذكرنا، ولكنَّها مهما بلغت من الكثرة والشِّدة لا يجوز أن تكون عذراً أو سبباً في التَّقاعس أو الاستسلام أو اليأس. والسُّبل إلى تحقيق الوحدة العربيَّة غير قليلةٍ، وبالدَّرجة الأولى أنا لا أتفق مع **سعد الله ونوس** في قوله: إنَّ زمن الثورات قد انتهى. ولا أخالف من يقول بتحقق الوحدة عن طريق القوة. ولا أعترض على من يرى تحقُّقها على نحوٍ مرحليٍّ. وأصعق فرحاً إن تحقَّقت تحقُّقاً كاملاً دفعةً واحدةً... و ... لا أدري ماذا أقول، إنِّي وكلُّ العرب إلا الحكَّام نريد الوحدة مهما كان السَّبيل الموصل إليها.

ولٰكن، كلمة لمن يريدها يمكن أن تقال: إنَّ الجامعة العربيَّة التي كانت عاملاً من عوامل تكريس التَّجزئة يمكن أن تلعب دوراً مهماً وأساسيًّا في الوحدة. أقول يمكن ولست مطمئناً إلى ذٰلكَ كثيراً، لأنَّ فتح الحدود العربية/ العربية أمام بعض البضائع لا النَّاس قد وضع على جدول أعمال الجامعة منذ تأسيسها، وفتح ملفها في عام ٢٠٠٠م، ويتوقعون أن يبرمج الأمر على نحو عشرين سنة، فيما الحدود العربيَّة / الأجنبيَّة مفتوحة بشكل كامل، ورُبَّما من دون قيد أو شرط في كثير من الدول العربيَّة.

يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

دمشق في ١٩٩٨/١٢/٢٧م

الفصل الرابع
الحكام العرب وعقدة الزعامة

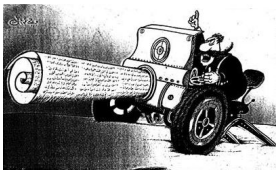

رحل **جمال عبد النَّاصر** وصادر برحيله، وقبل رحيله، على فكرة الزَّعامة العربيَّة الفاعلة من بعده، ليحول من ثمَّ دون تحقُّق شروط خلق زعيم عربيٍّ قادرٍ على تحريك الشَّارع العربي بكلمةٍ واحدةٍ، وقادرٍ على هزِّ العروش العربيَّة بكلمةٍ واحدةٍ، وقادرٍ على إلزام القادة العرب بسياسة أو سياسات محدَّدةٍ إلى حدٍّ يزداد وينقص... بل حرق أوراق كلِّ شخصيَّة قياديَّة قادرة على سدِّ شاغر الزعامة العربيَّة الذي كان يشغله فظلَّ هٰذا الكرسيُّ شاغراً منذ سحابة ثلث قرن.

وإن كان من غير مقاصدنا تبيان كيف صادر **عبد النَّاصر** على فكرة الزَّعامة من بعده فإنَّ الضَّرورة هي التي تلحف علينا للوقوف بلمحة على هذه الكيفيَّة.

تمتَّع **عبد النَّاصر** بخصائص شخصيَّة (كاريزم) ساعدته كثيراً على البروز بوصفه شخصيَّةً قائدةً، ورمزاً، وقد برز بهٰذا الوصف مع مطالع الاستقلالات العربيَّة، هٰذه المرحلة التي فرضت على الجماهير العربيَّة أن تبحث عن رمزٍ يعزز نضالها وأهدافها من أجل تعزيز الاستقلالات، وتحقيق الوحدة العربيَّة التي كانت تملأ ساحات الشُّعور واللاشعور العربي كلَّها. وبغضِّ النَّظر عن غايات **عبد النَّاصر** فقد أضفت الجماهير العربيَّة على الشِّعارات التي كان يطلقها **عبد النَّاصر** بعداً قوميًّا تحرريًّا، ألزم **عبد النَّاصر** ذاته أن يعزف على هٰذا الوتر الحسَّاس، وجعلت منه، من ثَمَّ، رمزاً قوميًّا، ووسَّعت له مكانة الصَّدارة على امتداد الوطن العربي،

وجعلته زعيماً قادراً على فرض إرادته على مختلف القيادات والزعامات العربيَّة، من خلال الثقل الجماهيري الذي أعانه على فرض هٰذه الإرادة على امتداد الوطن العربي.

فلماذا لم يستغل **عبد النَّاصر** هٰذا الظَّرف وهٰذا الوضع لتحقيق الشِّعارات التي كان يطرحها، وخاصَّةً الوحدة العربيَّة التي كانت شعاره هو، وقد كان ذٰلكَ أمراً يسيراً عليه بالبرهان القاطع؟ هٰذا ما ليس يعنينا هنا، لأنَّ الذي يعنينا هو أنَّ عدم استغلال هٰذا الظَّرف وبقاء الوضع العربي على ما هو عليه من انقسام وتشرذم قد وضع الحكام العرب أمام الحقيقة التي لا يحبونها، وهي أنَّ وجود زعامةٍ عربيَّةٍ من طراز **عبد النَّاصر** ستجعل كلَّ العروش العربيَّة على كفِّ الجماهير تحركها كيفما تشاء. ولعَلَّ هٰذا هو وحده ما يرفضه الحكام العرب ولا يطيقونه، ولا يسمحون بوجوده. ولذٰلك كانت أكثر الفترات قلقاً عند الحكام العرب هي فترة وجود **عبد الناصر**، لأنَّهُ امتلك الشَّارع العربيِّ على الرُّغم من إرادات هؤلاء الحكام.

ولذٰلك تحرك كلُّ الحكام العرب، على مختلف الأصعدة والمستويات، مكرسين كلَّ جهودهم، من أجل الحيلولة دون تصاعد نجم حاكمٍ أو زعامةٍ عربيَّةٍ قادرةٍ على قيادة الجماهير وتحريكها، لا على المستوى العربي كلِّه، بل أيضاً على مستوى بلدانهم التي يحكمونها، حَتَّى تظلَّ العروش مستقرَّةً، والقائمون عليها في دعة وطمأنينة، وقد اتَّخذت هٰذه المساعي مناحٍ متعدِّدة يمكن إجمالها على النَّحو التالي:

تمثَّلت أولى هذه المناحي في تعزيز الرُّوح القطريَّة، والنَّفَس القطري عند المواطنين، وتقديم الانتماء القطري على الانتماء القومي، على نحوٍ حاول بشدَّة إقامةَ تقاطبٍ وتعارضٍ بَيْنَ الانتمائين القومي والقطري، وذٰلكَ من خلال إقامة التَّوحد بَيْنَ الدولة القطريَّة وحاكمها، والتَّنقيب في بطون التَّاريخ عما يؤكِّد

الاستقلاليَّة القطريَّة إلى درجة اختلاق الوثائق والوقائع والمفاخر والمآثر التي يمكن أن تساعد في تشكيل أو صنع تاريخٍ للدولة القطريَّة، وقد نجح الحكام العرب إلى حد ما، ومن خلال العناصر اللاحقة أيضاً، في إشاعة هٰذه الروح بَيْنَ أبناء أقطارهم، انعكست على الأقل في سلوكات الجماهير القطرية مع بعضها بالعرض، فتكون حسنةً إذا كانت العلاقة بَيْنَ القطرين حسنةً، وتكون سيئةً إذا كانت العلاقة بَيْنَ القطرين سيئةً وهٰذا مرتبط، هنا في الحد الأدنى، بالتوحيد بَيْنَ قيمة الحاكم وقيمة القطر، بَيْنَ تاريخ الحاكم وتاريخ القطر، بَيْنَ القطر والحاكم... ليغدو، في نظر المواطنين، بسبب الرقابة المخابراتيَّة، أن من يسيء إلى الحاكم يسيء إلى القطر وتاريخه وقيمة فعله وأهميته... فصار من المتعذَّر، من وجهة النَّظر هٰذه، ومن خلال هٰذا المسعى، أن يتعلَّق جماهير أيُّ قطرٍ بحاكم قطرٍ عربيٍّ آخر بوصفه حاكم قطر آخر، وزعيم قطرٍ آخر لا زعيم للقطر الذي ينتمون إليه.

ولأنَّ إقامة التَّقاطب القطعي بَيْنَ القوميَّة والقطريَّة على نحو يؤدِّي إلى الاستقلاليَّة الحقيقيَّة للقطري عن القومي لن يحدث تماماً، وهو في أصله وحقيقته ليس في مصلحة الحكَّام ذواتهم، ولا في مصلحة الجماهير العربيَّة التي مهما مُورِسَ عليها من تضليل لن تؤمن بذٰلكَ، كان لا بدَّ للحكَّام من لعب دورٍ آخر يمارس تأثيراً مزدوجاً؛ هٰذا الدور هو دور الزعامة القوميَّة، دور القائد المنقذ للجماهير العربيَّة، الحريص على العروبة. فبرز بذٰلكَ كلُّ حاكم أمام جماهيره بوصفه الزعيم المخلِّص، المنقذ، الذي تعانده الظروف، ويقف دون زعامته الحكام العرب الآخرون، وبناء على هٰذا الأساس وجدنا العواصم العربيَّة كلها تبدو بوصف كلٍّ منها؛ قلب العروبة، حاضنة القوميَّة، مربى الأحرار، مركز الثقل العربي، موئل الفداء، منبع العطاء... وتبدو العواصم العربيَّة الأخرى، والأقطار الأخرى، في هٰذا

السياق، على أنَّها إمَّا رجعيَّة، أو عميلة، أو ضدَّ العروبة، أو ضدَّ الإسلام، أو خائنة، أو يساريَّة أو يمينيَّة... ولتصبح العلاقة بَيْنَ الأقطار العربيَّة علاقة صداقةٍ لدودةٍ، عداوةٍ معلَّقةٍ، حربٍ غير معلنةٍ... فيما في الوقت ذاته تتعزز علاقات الأقطار العربيَّة مع غير العربيَّة على أعلى المستويات وأرقاها.

ومن أطرف النَّتائج المنبثقة عن هٰذه السياسة أنَّ كلَّ دولة عربيَّة، أو معظم الدول العربيَّة على أقل تقدير، قد وقَّعت اتفاقيَّات دفاع مشترك، وشراكة استراتيجيَّة مع الدول غير العربيَّة، وربَّما المعادية للمصالح العربيَّة، فيما ليس هناك أي اتفاقيَّة دفاع مشترك بَيْنَ أيٍّ دولتين عربيتين، ولا شراكة استراتيجيَّة، ولا شراكة تستحقُّ أدنى الاحترام بَيْنَ أيٍّ دولتين عربيتين.

وبطبيعة حال هٰذا السُّلوك فإنَّه من الصَّعب أن يكتمل أو يتَّخذ بعده الفاعل من دون الممارسات الاستشرافيَّة (ادعاء الشرف) على حساب الأقطار الأخرى، بمعنى محاولة كلَّ قطر على حدةٍ إظهار سياساته على أنَّها مثال الطُّهر والشَّرف والنَّظافة والأمانة، في مقابل الممارسات الاستعدائيَّة من الدُّول العربيَّة الأخرى التي تسعى إلى فضِّ بكارة هٰذا الطُّهر وهٰذا النَّقاء... وهٰذا ما ظهر في شيوع العقليَّة التَّآمريَّة بَيْنَ الأقطار العربيَّة، ولا سيَّما المتجاورة منها. فصارت المهمة الأساسيَّة للوسائل الإعلاميَّة والأجهزة المخابراتيَّة والتَّجسيسيَّة في كلِّ قطر هي الكشف عن مؤامرات الدُّول العربيَّة المجاورة، وغير المجاورة، التي تهدف إلى قلب نظام الحكم، وإثارة الفتن والنعرات الطَّائفيَّة المهددة لأمن الدَّولة والوطن والمواطنين... ولم يكن من الصَّعب على كثير من الدُّول العربيَّة أن تختلق مثل هٰذه الأكاذيب، وأن تستعدي الدول العربيَّة الأخرى، لتسوغ قمعيتها، وتمتينها الحدود، وإغلاق عقول المواطنين ومشاعرهم أمام أيِّ تعاطفٍ مع الجماهير العربيَّة الأخرى

في أيِّ مناسبة من المناسبات، وأمام أيِّ إمكانيَّة ليِّ تعاطف مع ايِّ حاكم عربي قد يكون معبِّراً عن طموحات الجماهير العربيَّة في وحدتها وعزَّتها... ولذلك فإنَّ العلاقات العربيَّة العربيَّة ظلَّت مشحونةً بالتَّوتر والعداء والقلق والخوف من الآخر العبي طيلة نحو ربع قرن. أي منذ مطالع سبعينات القرن العشرين حَتَّى خواتيمه.

وفي سياق ذَلكَ كلِّه كان لا بُدَّ، بَيْنَ الفينة والأخرى، من تلقين الجماهير العربية دروس الطاعة وحسن الانقياد كيما يمكن ضبطها عند اللزوم، أي عندما تتحرك مشاعرها القومية، عندما تفكر في التعاطف مع حاكمٍ عربيٍّ آخر، عندما تجنح إلى نصرة الأشقاء العرب، عندما تظنُّ أنَّهُ يمكن إزالة الحدود بَيْنَ الدُّول العربيَّة...

ووصل بهم الأمر لا إلى حد ضبط الجماهير عند هٰذه اللزومات وحسب بل إلى الهيمنة على عقولهم في كلِّ الأوقات، وإلى عد الأنفاس عليهم نفساً نفساً ومحاسبتهم على الزائد منها، بوساطة طرقٍ تبدأ ولا تنتهي، بذرائع تبدأ ولا تنتهي. فصارت النَّاس عاجزةً عن التَّعبير عن أحلامها الخاصة، الشَّخصية، بعيداً عن رقابة الضَّمير المخابراتي، وسياسة الدولة القطرية، والطموحات القطرية، والحدود القطريَّة...!!

وعلى الرَّغْمِ من ذَلكَ كلِّه فإنَّ سياسة الحكام العرب، معظمهم، محكومة بعقدة الزعامة، هٰذه العقدة التي حالت وتحول دون أيِّ لقاءٍ عربيٍّ عربيٍّ، دون أيِّ تقاربٍ عربيٍّ عربيٍّ. ومن ثَمَّ دون أيِّ موقفٍ عربيٍّ موحَّدٍ أو حَتَّى شبه موحَّدٍ. ولو أنَّ عقدة الزعامة، أو نزوع الزعامة، أو مركزة الثقل هٰذه ظلَّت محصورةً بَيْنَ الدول المحورية التي يحقُّ لها بصورة أو بأخرى أن تمارس مثل هٰذا الدور لكان الأمر في إطار المقبول إلى حدٍّ ما، ولٰكنَّهُ تعدى ذَلكَ إلى شمول الغالبية السَّاحقة من الدول العربية

إن لم تكن كلها، ولعَلَّ جزر القمر وحدها هي التي لم تبدُ بهٰذا المظهر حَتَّى الآن، ورُبَّما كانت تفكر في ذٰلكَ، فكل الحكام العرب عباقرة تجاوزوا حدود الزَّمان والمكان، فضاقت فضاءاتهم القطرية والإقليمية بملكاتهم القيادية وقدراتهم الفذة التي يظنون أنَّهُ لا نظير لها في التاريخ، وصار على هٰذا الأساس من الجارح لكرامتهم قبول أيِّ دورٍ هامشيٍّ على المستوى العربيِّ، على الرَّغْمِ من سهولة ذٰلكَ عليهم في علاقاتهم مع دولٍ غير عربيةٍ. ولذٰلك فإنَّ كلَّ واحدٍ منهم أكبر بكثير، مثلاً، من أن يقبل أيَّ دعوةٍ للقمَّة العربيَّة فيما يجب أن يلبي الجميع دعوته إن دعا إليها، وكذٰلكَ يصعب عليه أن يوافق على أيِّ اقتراح يقترحه أيُّ زعيم عربيٍّ آخر حَتَّى، ولو كان يودُّ هو أن يقترحه، كي لا يظهر على أنَّهُ منقادٌ، ولا على أنَّهُ أقل قيمةً وزعامةً من صاحب الاقتراح... وغير ذٰلكَ مما يندرج في إطاره ومعناه.

رُبَّما يمكن استثناء بعض الدُّول العربيَّة من عقدة الزعامة هٰذه، ولٰكن رُبَّما يصعب استثناء حاكمٍ عربيٍّ من عقدة الزعامة. فكيف يمكن أن تقوم للعرب قائمةٌ؟ وكيف يمكن أن يكون هناك لقاءٌ عربيٌّ عربيٌّ؟!

لقد أثبت الشَّعب العربيُّ في غضبته الأخيرة، احتجاجاً على صمت الحكام العرب تجاه ما يحدث للشَّعب العربيِّ في فلسطين، أنَّ الشَّعب لا يموت، وأن الأخوة حقيقةٌ تاريخيَّة يتعذَّر فكُّ أواصرها، ولٰكنَّ أوان اللقاء الحقيقي لم يحن بعد... رُبَّما يكون قريباً جدًّا، ورُبَّما يبتعد بعض الشيء... ولٰكنَّهُ حقيقة لا تموت.

اللاذقية ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٠م.

الفصل الخامس

أزمة النظام الإقليمي العربي

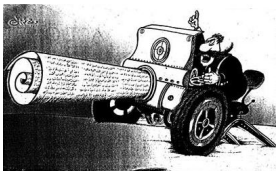

نقطتان تنبثق عنهما ثالثة هي دواعي أزمة النِّظام الإقليمي العربي؛ الأولى خارجية والثانية داخليَّة والثَّالثة منبثقة عن العلاقة بَيْنَ الدَّاخل والخارج.

أمَّا الأولى فهي وجود قوى عظمى متصارعة في سباقها على اعتلاء القمَّة والتَّفرُّد بها، انتهت في المحصِّلة إلَى الانتصار الأمريكي غير المفاجئ ومن ثَمَّ تفرُّد الولايات المتحدة في الهيمنة على العالم. ولٰكنَّ انتصار الولايات المتحدة ومن ثَمَّ تفرُّدها في الهيمنة على العالم لم يكن يعني ولن يعني أنَّها ستظلَّ متفرِّدةً، ولا أنَّ القوى الأُخْرى ستستسلم لهٰذا الانتصار الأمريكي، وهٰذا ما يعيدنا إلَى الحالة العامَّة لهٰذه النُّقطة وهي حالة الصِّراع من أجل اعتلاء القمَّة والبقاء عليها قدر الإمكان.

الصِّراع إذن موجودٌ، ولن نخوض غمار الأصول أَو الجذور الفكرية والفلسفية له، وهو مسوَّغٌ على أيِّ حالٍ، وبأيِّ طريقة كانت الممارسة، على الأقل من وجهة نظر الموجودين في حلبة الصِّراع. وكان من نتائج هٰذا الصِّراع، بل من مقدِّماته الحيلولة دون ظهور قوى تنافس هٰذه القوى المتصارعة في الحالة العامَّة للصراع، أو تنافس الولايات المتحدة في الحالة الخاصَّة للصراع وهي في حالة التَّفرد في الهيمنة، بل إنَّ الولايات المتحدة ابتدعت فكرةً جديدةً سُمِّيت بالضَّربة الاستباقيَّة، وهٰذه الضَّربة الاستباقيَّة لا تعني الحيلولة دون ظهور قوى أُخْرَى منافسة فَقَطْ بل تتجاوز ذٰلكَ إلَى ضرب من يحاول التَّفكير، أو من يفكِّر في أن يفكَّر في دخول حلبة المنافسة مثل العراق خاصَّة والدول العربيَّة والإسلاميَّة عامَّة، أو يفكِّر في التَّمرد

على قبعة العام سام من القوى الموجودة ولو نظريًّا في حلبة الصِّراع، مثل الدول الأوربيَّة عامَّة واليابان والصين وكوريا.

هٰذه هي الرِّسالة الَّتي أرادت الولايات المتحدة إيصالها من خلال العدوان على العراق إلَى الدُّول العربيَّة والإسلامية خاصَّة، وإلى دول العالم الأُخْرى عامَّة؛ لَقَد أرادت إدارة **بوش الثاني** القول للعالم أجمعه: التَّاريخ انتهى على أعتاب الحضارة الأمريكيَّة ولا يجوز أن تفكِّر دولةٌ أبداً في الشُّبوب على الطَّوق الأمريكي.

وهٰذه الرسالة ذاتها الَّتي كانت تحرك السِّياسة الأمريكيَّة الخارجيَّة والدَّاخليَّة منذ فترة السِّياسة القطبيَّة الثنائيَّة هي الَّتي كانت أساس أزمة الإقليمي العربيَّ، لأنَّها باختصار لن تسمح بأيِّ تقاربٍ عربيٍّ. عربيٍّ يحتمل حمله أيَّ خطر تنافسيٍّ يهدد الهيمنة الأمريكيَّة، وستكون وفق هٰذا المنظور أيُّ وحدةٍ عربيَّة أمراً مرفوضاً رفضاً قطعيًّا من قبل الولايات المتحدة اليوم، ومن قبل الدول المتصارعة سابقاً، ومن قبل الدُّول المحتملة الدُّخول في تنافسٍ أو صراعٍ مع الولايات المتحدة مثل أوروبا والصين وروسيا... وعلى هٰذا الأساس عملت الدول العظمى سابقاً على تكريس أنظمة حكمٍ عربيَّة مقبولة من الدول العظمى بغضِّ النَّظر عن مدى مقبوليتها لدى جماهيرها؛ الأساس أن تكون مقبولة من الدول الغربيَّة ولا مشكلة فيما إذا كانت مقبولة من الجماهير العربيَّة أم لا.

الشَّطر الأول من المعادلة تحقق في الغالبية العظمى من الأنظمة العربيَّة الحاكمة، ولٰكنَّ التناقض لم يظهر جليًّا بَيْنَ السُّلطة والجماهير فيما خلا من السنين الَّتي ضاعت فيها فلسطين بما تلاها من النكبات والنكسات، والسَّبب في عدم ظهور هٰذا التَّناقض على جلائه هو الإعلام المتخلف من جهةٍ أولى، والتَّضليل لإعلامي من جهةٍ ثانيةٍ، والوضعيَّة التاريخيَّة والتَّاريخيَّة الاجتماعيَّة للجماهير العربيَّة

من جهةٍ ثالثةٍ. ولذلك لم تظهر أزمة النِّظام الإقليمي العربي في المراحل السابقة، أمَّا اليوم، مع التَّطور الإعلامي الهائل وثورة المعلومات، والتَّطور التاريخي الذي تحقَّق للمجتمع العربيِّ الذي أدَّى بالمجمل إِلَى تنامي الوعي المعرفيِّ العربيِّ وتوافر المعلومات الصَّحيحة غير القابلة للدحض فقد زالت ورقة التوت الَّتي تستر العورات، ولم يعد من الممكن استمرار اللعب في الكواليس.

بسقوط ورقة التُّوت لهٰذه انفضحت لهٰذه الأنظمة العربية الحاكمة، وانكشف ما كان مستوراً من الفضائح، وانفجرت أزمة الأنظمة الحاكمة الَّتي كرَّست وتكرِّس الإقليميَّة من أجل مصالح غير إقليميَّة كما زعموا ويزعمون، وإنَّما لمصالح الدول الغربيَّة الَّتي خصَّصت وتخصِّص رواتب شهريَّة لشخوص الحكَّام الذين يحقِّقون المصالح الغربيَّة عامَّة والأمريكيَّة خاصَّة.

لهٰذه النُّقطة في حقيقة الأمر هي الوجه الأول من أوجه العلاقة بَيْنَ الدَّاخل والخارج، أمَّا الوجه الثَّاني لها فهو الوعي الجماهيري المتزايد بحقائق النَّوايا الغربيَّة عامة والأمريكيَّة خاصَّة في المنطقة العربيَّة. ووصول الوعي الجماهيري العربي إِلَى الحدِّ الذي يصعب معه خداعه كما كان الأمر فيما خلا من المراحل الَّتي بدأت بوعد **بلفور** وانتهت تاريخيًّا بحرب الخليج الثَّانية الَّتي سميت بأسماء كثيرة، لهٰذه الحرب هي الخطوة الأخيرة في انطلاء الخدعة على الجماهير العربيَّة، فقد صدَّق الكثير من العرب حينها أنَّ الحرب حرب تحرير الكويت وليست بداية تنفيذ المشروع الأمريكي في المنطقة العربيَّة بتدمير قوَّة عربيَّة عظيمة في ذٰلكَ الحين، أي القوة الَّتي يحتمل أن تشكل تهديداً للهيمنة الأمريكيَّة ومنافساً لها، أَو على الأقل تهديداً للوجود الصهيوني في فلسطين حَتَّى ولو لم يفكِّر العراق في خوض أيِّ حرب ضد

الكيان الصهيوني، لأنَّ المسألة ليست في شنِّ الحرب على هٰذا الكيان وحسب وإنَّما هي في امتلاك سلاح يصل إلَى عمق الكيان الصهيوني، وهٰذا ما لا تقبله الولايات المتحدة والكيان الصهيوني حَتَّى مع وجود ضمانات بعدم استخدام هٰذا السلاح، لأنَّ الولايات المتحدة، ومعها الكيان الصهيوني، تريد أن يبقى الكيان الصهيوني وحده القادر على التهديد ولا يحق لأحدٍ امتلاك القدرة على تهديده.

أمَّا النُّقطة الثَّانية وهي الدَّاخل العربي، سيان أكان العرب موحدين أم مجزَّئين، فتتمثَّل بالبنى المتخلِّفة الَّتي تعيشها الأمَّة العربيَّة في جميع الميادين منذ ردحٍ غير قصيرٍ من الزَّمن. هٰذه البنى المتخلفة، بغضِّ النَّظر عن العامل الخارجي، لن تنتج إلاَّ أنساقاً متخلِّفة، وأنظمة متخلفة، ومناهج متخلِّفة.

من المفترض نظريًّا أن تسير الأمَّة قدماً من التخلف إلَى التطور، وهٰذا أمرٌ واقعٌ فالأمة قَدْ حقَّقت تقدُّماً واضحاً منذ مطالع القرن العشرين إلَى اليوم، ولكن هٰذا التقدم نسبيٌّ، يجب ألا ينظر إليه باستقلاليَّة عما دار ويدور في العالم من تطورٍ وتقدُّمٍ، فبالمقارنة مع العالم ظلَّ التَّخلُّف العربي ينتج تخلفاً، ولكنَّهُ رُبَّما يكون أقلَّ تخلُّفاً من المراحل السَّابقة إذا ما قورن بالواقع العربي ذاته، ولكنَّهُ بالتأكيد أكثر تخلفاً إذا ما قورن مع ما حقَّقه العالم من تقدُّم وتطور.

المشكلة هنا هي أنَّ الأنظمة الحاكمة وغير قليل من النَّخب المثقفة عوضاً عن أن تسعى إلَى تجاوز هٰذه الحالة المتخلفة سعت إلَى تكريسها، وتأصيلها، وتجذيرها، وتشتيت جهود الأمة وقدراتها من أجل تكريس الحالة القطريَّة لمنافع شخصيَّة وخدمة لمصالح غربيَّة...

هٰذا العامل بالتَّضافر مع العامل الخارجيِّ أحال العلاقة بَيْنَ الأقطار العربيَّة إِلَى علاقة تشاحن باطن وعداء مضمر محكومة بعقليَّة تآمريَّة، تربصيَّة، انتقاميَّة، ثأريَّة... تجعل كلَّ نظام حاكمٍ يتحين الفرصة للقضاء أو الانقضاض أو الثَّأر أو الانتقام... من الأنظمة الأُخْرى بنسب متفاوتة من الحديَّة المرتبطة بمدى الصِّلة بَيْنَ هٰذا النِّظام وذاك. وهٰذه هي في حقيقة الأمر أزمة النظام الإقليمي العربي.

كيف يمكن الخروج من هٰذه الأزمة؟ ما الآفاق الممكنة أو المتاحة؟

عندما كانت الأمور تشتد بالأنبياء ضيقاً، وتتأزم بهم الأحوال مع أهليهم كانوا يقولون: «اللهم اهد قومي فإنَّهُم لا يعلمون». ولٰكنَّ المصيبة الطَّامَّة هي أنَّ قومنا يعلمون، ويعلمون أنَّهم يعلمون، ولكنَّهُم لا يعملون بما يعلمون.

لم تعد الولايات المتحدة تخفي مخطَّطاتها وغاياتها وأهدافها، حَتَّى الكثير مما ينطوي تحت عباءة السرية من المخطَّطات تجاهر به المخابرات الأمريكية والإعلام الأمريكي من غير ما تردُّدٍ أو خوفٍ أو حرجٍ... ولٰكنَّ هٰذا لا يعني أنَّ كلَّ شيء بات مفتوحاً مفضوحاً، وإنَّما تسرب أو تعلن الاستخبارات الأمريكية ما يخدم مخطَّطاتها واستراتيجياتها حَتَّى ولو كان من الأسرار العسكرية أو الأمنيَّة... أَو ما ظهر في صيغة أسرار.

حقيقة الأمر أبعد غوراً من ذٰلكَ؛ إنَّ ما تعلنه الاستخبارات الأمريكية بوساطة وسائل الإعلام المختلفة الأمريكية وغيرها ليس أسراراً على الإطلاق، رُبَّما كانت أسراراً يوماً ما؛ بعضها أو كلها، ولكِنَّها لا تعلن اليوم بوصفها فضح أسرار ينبغي أن تظلَّ طيَّ الكتمان، وإنَّما بوصفها ممارسة عمليَّة علنيَّة إعلاميَّة للحدِّ الأدنى المطلوب أمريكيًّا، الذي لم يعد سرًّا في هٰذه الحال، وإنَّما السرُّ هو ما ظلَّ مخفيًّا، وما خفي وبطن أعظم بكثير وأخطر.

إذا كان هٰذا الذي أعلن بوصفه أسراراً يتضمَّن هٰذه المطالب والمشاريع والمخطَّطات، فكيف ستكون حال الأسرار الَّتي تقف وراء هٰذه المشاريع والمخطَّطات؟!

من طريف الأمر وخطير أنَّ ما نراه الآن سرًّا، ومجموعه أسرار، لم يكن أسراراً في ستينات القرن المنصرم، ورُبَّما قبلها، أي قبل نحو خمسين سنة. ونفرح نحن اليوم ورُبَّما نفخر لا بأننا اكتشفنا هٰذه الأسرار وإنَّما بأن الولايات المتحدة كشفت عنها!!

من هٰذه المعادلة يمكن فهم سيرورة النظام العربي في عمق المستقبل. فبأمر من الرؤساء والملوك العرب، الذين ما زالت طاعتهم وطاعة أمرهم أولى من طاعة الله وأمر الله، بدأ المسؤولون المختصون والمؤسسات المختصة، في أكثر من دولة عربيَّة لا تصعب تسميتها، بتطبيق التعليمات التنفيذية لورقة **كولن باول** النظرية، وأول المؤسسات الَّتي بدأت التَّطبيق والتَّنفيذ هي وزارات التَّربية الَّتي راحت تحذف من المناهج، ولا سِيَّمَا الدينية، ما يحض على الجهاد أَو النضال أَو الكفاح أَو حَتَّى القتال... بل حَتَّى الدفاع عن الكرامة، لأنَّ الدفاع الكرامة من الآن فصاعداً ستتولاه منظمة حقوق الإنسان والعساكر الأمريكيون بإشراف الأمم المتحدة... ورُبَّما من دون حاجةٍ لإشرافها لأنَّ الولايات المتحدة قادرةٌ على حسن التقدير بفضل ما ألهمها الله!!!

النِّظامُ العربيُّ منخرطٌ إِلَى أبعد الحدود في اللعبة الأمريكيَّة والممارسة والأمريكيَّة انخراط الشَّريك لا الخصم ولا المنافس ولا المناقش، انخراط الشريك الذي يسعى إِلَى تحقيق المصالح الأمريكيَّة أكثر مما يسعى أو يفكر أو يحاول في تحقيق مصالح شعبه. وهٰذه حقيقة، للأسف الشَّديد، باتت بحكم البداهات لا المسلمات ففي التَّسليم جهدٌ ومجاهدةٌ بَيْنَما تفرض البداهة على الأذهان، كلِّ الأذهان،

ذاتها، بالقوَّة ذاتها. وبهذا المعنى قال **بندر بن سلطان** منذ أيام: «إذا عطست أمريكا التهبت رئتا العالم العربي»، ومن المؤكَّد أنَّهُ يقصد الحكام العرب، لأنَّ الشَّعب العربي لم يتأثر ولن يتأثر لا بالعطسة الأمريكيَّة، ولا بسرطانها الرِّئوي وقد أثبتت التجربة شيئاً من ذَلكَ.

إنَّ انخراط النظام العربي في المنظومة الأمريكية هو انخراط مصالح مشتركة، ورُبَّما تكون صميميَّة، ورُبَّما في هٰذا وحده ما يفسر لنا ما تسميه الجماهير العربيَّة خيانة؛ خيانة النظام العربي وعمالته. **ولا يجوز إلا أن نعذر الشارع العربي على تخمينه وظنه ورُبَّما اعتقاده بخيانة الحكام العرب**، فما مسوغ أن يصفعنا المسؤولون الأمريكيون علناً بتصريحات جليَّة تقول إنَّ الحكام العرب يرفضون في العلن ضرب العراق، وهم يدعوننا إلَى ذَلكَ في السرِّ؟! وما مسوِّغ الشعارات الطنانة الَّتي يرفعها الحكام العرب في وجه السياسة الأمريكيَّة والمطالب الأمريكية، بَيْنَما الممارسة العمليَّة تصبُّ في خانة هٰذه المطالب والمخطَّطات؟! بل إنَّ بعض الحكام العرب لم يجد من الحرج، أَو الحياء، ما يحول بَيْنَه وبَيْنَ تبنِّي السياسة الأمريكيَّة علناً!! لدينا من الحياء ما يحول بَيْنَنا وبَيْنَ ذكر الأسماء والشواهد...

ولذَلك ليس من حرجٍ إذا قلت إنِّي لا أظنُّ أبداً أنَّ ثَمَّةَ إمكانيَّة للخروج من هٰذه الأزمة، ومن هٰذا التَّردِّي طالما أنَّ الأنظمة الحاكمة الموجودة هي الَّتي ستظلُّ موجودةً على رأس السُّلطة في العالم العربي، لأنَّ هٰذه الأنظمة مكبَّلةٌ بمواثيق وعهود، ورُبَّما أشياء مخفيَّة سريَّة خطيرة، الأمر الذي يجعل توبتها غير ثقةٍ أبداً، وغير مأمونة العواقب أبداً، والتجربة الَّتي عشناها في السَّنوات الأخيرة، وخاصَّةً أزمتي

الانتفاضة والعدوان على العراق، تثبت عجز النِّظام العربي عن التوبة لا عن الفعل وحسب.

وهل تتوقع الأنظمة العربيَّة ما هو أشدُّ من هٰذه المآسي والممارسات الإذلاليَّة للعرب، وما هو أشدُّ وضوحاً من التَّصريحات الأمريكيَّة لتركيع المنطقة العربيَّة وإدارتها وتربيتها حَتَّى يرجئوا توبتهم إليها؟!

إنَّ عدم صحوة ضمير السلطة في العالم العربي أمام هاتين الأزمتين، مع ما فيهما من الوضوح في الغايات والأهداف يعني بالضرورة المنطقيَّة عدم استعداد ضمائرهم للصحوة أمام أزمات مماثلة أو أقل منها أو حَتَّى أكبر وأخطر.

إنَّ الرهان الحقيقي ليس على النِّظام العربي، أو الأنظمة العربيَّة، لأنَّهُ لو ظلَّ الأمر إليهم فإنَّ مستقبل النِّظام العربي هو فَقَطْ ما ترسمه الولايات المتحدة ولا شيء غير ذَلكَ على الإطلاق. وحَتَّى نعرف ما هو مستقبل هٰذا النِّظام يجب أن ننطلق من النهاية لا البداية، فليست هٰذه هي فعلاً الخريطة الجديدة للعالم العربي والإسلامي، وإنَّما هي التمهيد لبناء مستقبل العالم العربي والإسلامي. أعني من ذَلكَ بوضوح أنَّ ما تمَّ البدء بتنفيذه الآن بوصفه رسماً جديداً لمعالم المنطقة العربيَّة ليس إلا مفتاحاً لمستقبل آخر أكثر مأسوية وهزلية مما هو متوقع أو مرتقب. وإذا كانت الديمقراطية هو الصورة الظاهرة لهٰذا المشروع فإنَّ الديمقراطية في حقيقة الأمر الغائب الأبرز عن هٰذا المشروع لأنَّ الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي هي العدو الأخطر للولايات المتحدة الأمريكيَّة، وهي تدرك ذَلكَ تماماً. ومن كان يرتقب من الولايات المتحدة أنَّ تحقِّق الديمقراطية في العالم العربي فلن ينتظر إلا سراباً.

إنَّ الرهان الحقيقي هو المعقود على الجماهير العربيَّة، والجماهير العربيَّة لم تقل حَتَّى الآن كلمتها، بل لم تقل حَتَّى الآن كلمة، وقد مضى على صمته حَتَّى الآن نحو القرن، فهل سيطول الأمر أكثر؟!

إذا لم تصحُ الجماهير العربيَّة لتدافع عن كرامتها بذاتها فلن يكون هناك حلٌّ أبداً، بل مزيد من التركيع والإذلال... **والذي يبدو هو أنَّ الجماهير العربيَّة الَّتي بدا أنَّها قَدْ صحت ما زالت تترنح تحت وطأة سكرتها الَّتي طالت... ورُبَّما يطول ترنحها بعض الوقت أيضاً... ولٰكنَّ الواقع يقول إنَّ هذه الكلمة قَدْ اقتربت، وإنَّ صهيلها وهمهماتها قَدْ بدأت...** فإذا أفلحت الأنظمة العربيَّة في الآونة الأخيرة في خنقها وهي في اللهاة فإنَّها لن تستطيع ذٰلكَ في كلِّ مرَّةٍ... فلا بدَّ أن يكون هناك آخر مرَّة.

اللاذقية ١٨/٤/٢٠٠٣م

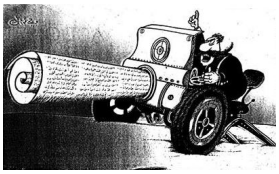

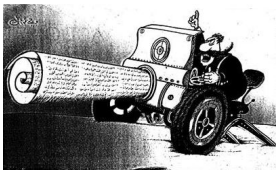

الفصل السادس
العقلانية السياسية العربية
عقلانية قادة هم همّ تعزيز سلطانهم

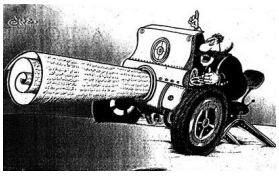

ليس فهم العقلانية بالمشكلة، ولا فهم السِّياسة بالمعضلة، ولٰكنَّ فهم العقلانيَّة السِّياسيَّة إن لم يكن معضلةً فهو شبه معضلةٍ، أمَّا العقلانيَّة السِّياسيَّة العربيَّة فهي أحجية رُبَّما يتعذَّر فكُّ رموزها وطلاسمها.

رُبَّما يتطلَّب الأمر منا بدايةً أن نميِّزَ بَيْنَ العقلاني والمعقول والعقلي من جهةٍ، وبَيْنَ عقلانيَّةِ السِّياسي بما هو فردٌ أَو قائدٌ سياسيٌّ بالمعنى الأكثر دقَّةً، والعقلانيَّة السياسيَّة للدَّولة بما هي مؤسَّسةٌ متواشجة الصِّلات بالاتفاقيات والعهود والعقود والمواثيق... مع نظائرها من المؤسسات أَو الدُّول من جهةٍ ثانيةٍ.

فإذا كان من الممكن أَو المقبول أن نتعامل مع الاصطلاحات الثلاثيَّة؛ العقلانيَّة، والمعقوليَّة، والعقليَّة، ضمن إطار دلاليٍّ واحدِ البعد والاتجاه، بناءً على ما بنيت عليه من مصدرٍ لغويٍّ واحدٍ، على الرَّغْمِ مما بَيْنَها من اختلافات، فإنَّهُ من غير المقبول أن ندمج الاصطلاحين الآخرين؛ ممارسة السِّياسي، والممارسة السِّياسيَّة للدَّولة، في بوتقةٍ دلاليَّةٍ واحدةِ الاتجاه والبعد، وخاصَّة في ظلِّ العالم العربيِّ على أقلِّ تقدير.

إنَّ الممارستين كلتيهما تستندان إِلَى الحقائق ذاتها، ورُبَّما المقدِّمات ذاتها، والأساليب ذاتها. ولكنَّ النَّتيجة هي الَّتي تختلف. وهٰذه النَّتيجة هي الَّتي تميِّز ممارسة السِّياسي الفرد عن الممارسة السِّياسيَّة للدولة. فالمهم السياسيَّة للدولة، بما هي مؤسَّسةٌ صاحبة قرار، تصبُّ عنايتها في معين بناء الدَّولة وتعزيز مكانتها وقدراتها، وضمان مصالح مواطنيها... استناداً إِلَى القوانين والدَّساتير والفلسفة المقرَّرة للدولة.

أمَّا القائد السِّياسي فإنَّهُ يقود الممارسة نحو تعزيز سلطته ومكانته ومصلحته بغضِّ النَّظر عن مدى توافق ذَلكَ مع مصلحة الدَّولة أَو الشَّعب.

هٰذا يعني أَنَّهُ من المتعذَّر تماماً أن تجتمع الممارستان معاً في دائرةٍ واحدةٍ أَو في دولةٍ واحدةٍ اجتماعاً يحقِّق لكليهما نتائجه المرجوَّة، ذَلكَ أَنَّهُ لا مكان مستقلٌ للقائد السياسي عن سياسة الدولة وفلسفتها في دولة المؤسسات، وفي المقابل لا تنفصل مؤسَّسات الدَّولة عن سياسة القائد السِّياسي في دولة القائد السِّياسي. ولذَلك إذا حدث تعارضٌ بَيْنَ ممارسات السِّياسي وسياسة الدولة في دولة المؤسَّسات كان من حقِّ الدَّولة أن تعزل هٰذا السِّياسي أَو تحاسبه أَو أن تقرَّ هٰذه الممارسة أَو ترفضها... ومثل هٰذا ما شهدته أكثر من دولة في العالم؛ **ريتشارد نيكسون**[٦]، **هلموت كول**[٧]، **بل كلينتون**[٨] وغيرهم غير قليلٍ... أمَّا إذا حدث هٰذا التَّعارض في دولة القائد السِّياسي فلن يجد هٰذا السِّياسي ما يمنعه من عزل الدولة أو المؤسَّسات وتغيير القوانين... والعالم الثالث كلُّه، ومن ضمنه العالم العربي، يصطف ضِمنَ هٰذا النَّسق.

إنَّ المطَّلع على الممارسات العقلانيَّة السياسيَّة العربيَّة، منذ مطالع القرن العشرين وحَتَّى اللحظة الرَّاهنة، أيَّا كانت أمَّته الَّتي ينتمي إليها، يشعر بالخزي والعار، ويستبدُّ به يأسٌ وإحباطٌ شديدين من هٰذه الممارسات الَّتي يسمِّيها السياسيون العرب بالعقلانية، ويقصدون بها حسن مراعاة الظُّروف والمعطيات المحليَّة والدوليَّة، وهي عقلانيَّة في حقيقة الأمر، عقلانيَّة بمعنى عدم طوباويتها، وعقلانيَّة

(٦) .كان ذلك في الفضيحة الشهير باسم واترجيت الَّتي انتهت بإقالته أَو استقالته.

(٧) .كانت نهاية هلموت كول السياسية إثر فضيحة الرشاوى الَّتي تقاضها لصالح حزبه لا لصالحه الشخصي.

(٨) . تعرض بل كلينتون للمحاكمة والإزعاجات الكثيرة الَّتي كادت تودي بحياته السياسية إثر فضيحته مع مونيكا لوينسكي.

بمراعاتها لهٰذه الظُّروف والمعطيات، ولكِنَّها متأبيةٌ على التَّوافق أَو التَّقبُّل من أيِّ عقلٍ بشهادة مفكِّري الغرب وسياسِيِّهِ قبل مفكِّري العالم العربي، لأنَّ مبادئ العقل الَّتي تقوم عليها ليست مقلوبةً وحسب، بل تفتقر إِلَى أيِّ حدٍّ من حدود الانتظام؛ فأيُّ عقلٍ، وأيُّ منطقٍ هو الذي يمكن أن يسوِّغ للسِّياسي أن يمكِّن عدوَّه منه ومن شعبه، أن يجعل كرامة شعبه وأمته مداساً لعدوِّه بمحض إرادته، أن يمدَّ عدوَّه بالأسلحة والأموال الكافية والمناسبة ليستقوي هٰذا العدو ويتجبَّر ويتمادى؟؟!!

إنَّ الأمثلة الحقيقيَّة والشَّواهد الحيَّة الَّتي تؤكِّد هٰذه الحقيقة، طيلة القرن الماضي وحَتَّى لحظتنا الرَّاهنة، أكثر من كثيرة، حَتَّى ليسهل البدء بعدِّها، ويصعب التَّوقف عن العدِّ!! بدءاً من مراسلات **حسين مكماهون**، مروراً بإخراج المستعمرين، والقصية الفلسطينيَّة، والعلاقات العربيَّة العربيَّة، والعلاقات العربيَّة غير العربيَّة... وصولاً إِلَى المسيرة السِّلميَّة الَّتي بدأت في عام ١٩٩١م، ولا أظنها ستنتهي.

إنَّ نظرةً عابرةً إِلَى التَّاريخ العربي طيلة القرن المنصرم تبدي لنا بما يفقأ عين كلِّ جاحدٍ أنَّ الظُّروف والمعطيات السِّياسيَّة العالميَّة الَّتي تمسُّ الواقع العربي بكلِّ معطياته، قَدْ تغيَّرت مئات بل آلاف المرَّات، ومواقع الدُّول وظروفها قَدْ تبدَّلت وتغيرت بالمقارنة مع العالم العربي، ومع بعضها، عشرات بل مئات المرَّات، ومع ذٰلكَ فإنَّ العقليَّة السِّياسيَّة العربيَّة، والعقلانيَّة السِّياسيَّة العربيَّة ظلَّت محافظةً على الوتيرة ذاتها، والإيقاع ذاته من الممارسة السِّياسيَّة؛ الأفعال وردود الأفعال تجاه موضوعات أَو مشكلات تغيَّرت معطياتها وأطرافها عشرات المرَّات، وانكشفت حقائقها الَّتي كانت، في الافتراض، غامضةً، وكأنَّ العرب، بل القادة العرب، لم يستفيدوا أدنى استفادةٍ من دروس التَّاريخ ولطماته الَّتي تحيي الأموات إن تلقوها.

والأدلَّة على هٰذه الجموديَّة في العقليَّة السياسيَّة، وهٰذه البلاهة السياسيَّة، جدُّ كثيرة، ولا أبالغ إذا قلت إنَّ عامَّة النَّاس تعرفها. وهذا ما يزيد الطِّين بلةً، والأمور فاجعيَّةً، ويجعل الممارسات السياسيَّة العربيَّة مدعاةً لكلِّ اندهاشٍ وذهولٍ.

لن نعدِّد الأمثلة الدَّالة على بلاهة العقلانيَّة السِّياسيَّة العربيَّة لأنَّ الأمر سيطول بنا، ولكن لا بُدَّ من مثال، ومما يعصف في ذاكرتي الآن أبياتٌ رائعة من قصيدةٍ عنوانها: «مهمة الجيوش العربيَّة في الكويت»، نظمها الشَّاعر **فيصل البلبيل** في ١٥ أيار ١٩٦٢م وأرسلها حينها إلَى أمين الجامعة العربيَّة، ورؤساء الحكومات العربيَّة، وقادة الجيوش العربيَّة في الكويت، وقائد الجيوش العربيَّة في الكويت.

تتجسد روعة هٰذه القصيدة وأهميتها في أنَّ من يقرأها الآن لا يمكن أن يصدق إلا أنَّها نُظمت لتصوير حرب تحرير الكويت الَّتي سميت عاصفة الصَّحراء، بكلِّ ما كتب عنها من دراسات ومقالات موضوعيَّة. وإذا تقدَّم المرء في قراءتها لا يصدق إلا أنَّها نُظمت لتصوير حال العرب في مؤتمر القمة العربيَّة ذي السيناريو المتكرر، ومؤتمر القمَّة الإسلاميَّة ذي السيناريو المتكرر أيضاً، والانتفاضة الفلسطينيَّة... واحتلال العراق... ويكفينا منها قوله[٩]:

فَمَا أُعِدَّتْ لَهُمْ إلاَّ شَتَائِمُنَا
وَرَاحَ يَدْعُوْ لِدِيْنِ السِّلْمِ دَاعِيْنَا

نُحْدَى إلَى السِّلْمِ وَالعُدْوَانُ يَصْفَعُنَا
أَيْنَ الْمَسِيْحُ لِيَسْعَى خَلْفَ حَادِيْنَا؟!

(٩) . فيصل عبد المجيد بلبيل: **قصائد مزقها عبد الناصر** . دار الثقافة . دمشق . ١٩٦٢م . ص ١٥٧ . ١٦١ .

حَـــالٌ تَـــذُوْبُ لَهَـــا الأَكْبَـــادُ مِـــنْ كَمَـــدٍ
وَذِلَّـــــةٍ تُخْجِـــــلُ الأَحْسَـــــابَ وَالـــــدِّيْنَا

مَـــاذا؟! أَتُوْقِـــدُهَا حَرْبـــاً؟.. أَلَسْـــتَ تَـــرَى
حَمَـــائِمَ السِّـــلْمِ تَشْـــدُو فِـــي مَغَانِيْنـــا!!

لا، لَيْسَـــتِ الْحَـــرْبُ مِـــنْ أَهْـــدَافِ أُمَّتِنـــا
إِلاَّ إِذَا عَـــــادَتِ الكُونغـــــو تُنَادِيْنـــــا!!

لا، لَـــنْ نُقَاتِـــلَ... لَـــيْسَ العُنْـــفُ مِنْهَجُنَـــا
وَإِنْ لَقِيْنَـــــا الرَّزَايـــــا مِـــــنْ أَعَادِيْنـــــا

ومما قال الشَّاعر ذاته في آذار من عام ١٩٦٢م في تصوير العلاقات العربيَّة العربيَّة[١٠]:

مَـا بَـالُهُمْ قَعَـدُوا وَتَطْـرُقُ بَابَنَـا حَـرْبٌ عَـوَانُ
أَغْفَتْ حَمِيَّتُهُمْ وَيَعْلُو فِيْ ذُرَى الشَّامِ الأَذَانُ

خَشِنُوْا عَلَيْنَا حِقْبَةً وَعَلَى بَنِيْ صُهْيُوْنَ لانُوا
يَـا عِبْئَنَـا إِنْ يَتْرُكُوْنَـا وَحْـدَنَا فَلَقَـدْ أَعَـانُوا

وفي مداخلة قدَّمها الشَّاعر ذاته إِلَى مؤتمر اتحاد الكتاب العرب المنعقد بدمشق في عام ١٩٧١م تحت عنوان: «الأديب العربي ومعركة المصير»، قال[١١]:

(١٠) . م. س. ص ١٤٤.

يَضْرِبُ العُدْوَانُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى خِيَامَا
وَبَنُــوْ يَعْــرُبَ لِلْعَــالَمِ يَبْنُــوْنَ السَّــلامَا

رُبَّما نكون قَدْ أطلنا الشَّاهد الشِّعري، وعذرنا أنَّ القصائد الَّتي اجتزئت منها هٰذه الشَّواهد تستحقُّ أن تذكر كلها، وأن يعاد نشرها. ولكنَّ الذي يهمنا على أيِّ حالٍ هو ما يبدو عليه وضع العرب منذ نحو نصف القرن مروراً بنصف هٰذا النصف، وكأَنَّهُ الوضع الراهن ذاته تماماً من حيث المعطيات والممارسة السياسيَّة العربيَّة المشينة الَّتي تُسَوَّغُ بأَنَّها عقلانيَّة سياسيَّة، وتسوق على أنَّها أفضل عقلانيَّة سياسيَّة، قياساً على قول **ليبنتز**: «ليس بالإمكان أفضل مما كان»، وكما أنَّ الله، على حدِّ تصور **ليبنتز**، «صاغ الوجود على أفضل صورةٍ ممكنةٍ»، فإنَّ الحكَّام العرب صاغوا عقلانيتهم السِّياسيَّة على أفضل صورةٍ ممكنةٍ.

إنَّ الأسئلة الَّتي تعترضنا هنا كثيرةٌ، وليس ثَمَّةَ مشكلة في أنَّ تتفاوت في أهميتها، لأنَّها كلَّها مشروعةٌ، ومنها مثلاً:

. ألا يفترض أن تكون النتائج النَّاجمة عن العقلانيَّة السِّياسيَّة نتائج إيجابيَّة؟

ـ وإذا كانت النَّتائج سلبيَّة أَو سيئة أفلا يفترض في هٰذا السَّلب أَو السوء أن يكون أقلَّ ولو بقليلٍ من خطرٍ كانت ستقود إليه الانفعاليَّة أَو الطوباويَّة السياسيَّة؟

ـ وهل العقلانيَّة السِّياسيَّة تعدُّ كذلكَ: عقلانيَّة سياسيَّة، بالنسبة لجميع الأطراف الَّتي لها بها صلة بوصفها سلوكاً أَو ممارسةً في موضوعٍ ما محدَّدٍ؟

---

(١١) . من مخطوطات الشاعر.

ـ وقبل ذلكَ كلِّه: هل العقلانيَّة السِّياسيَّة هي الَّتي تضمن بالضَّرورة تحقِّق النَّتائج المرجوة أَو الَّتي تتطلَّبها الأمَّة؟ وبمعنى آخر: هل هي السُّلوك الواجب اتباعه دوماً؟

ـ والأكثر من ذلكَ كلِّه أهميَّة: لماذا كانت، وما تزال، نتائج العقلانيَّة السِّياسيَّة العربيَّة أشدَّ وبالاً، وأوصم عاراً، من كلِّ ما يمكن أن يتوقع من أيِّ ممارسةٍ أُخْرَى؟

. وعل هٰذه النَّتائج ناجمة عن ممارسة عقلانية سياسيَّة فعلاً؟

. ولماذا كانت هٰذه النتائج؟

غالباً ما يكون طرح السُّؤال بحدِّ ذاته هو الإجابة، أو إنَّهُ متضمنٌ الإجابة كما هو شائعٌ في فلسفة الحوار. وسنتخذ من ذلكَ عذراً أَو ذريعةً لعدم إجابتنا عن كلِّ هٰذه الأسئلة بالتَّفصيل، من دون أن نعفي أنفسنا من الإجمال، على الرَّغْمِ من احتياجها إِلَى مزيدٍ من التفصيل.

قال أحدُ أصدقائي لسياسيٍّ إنجليزي: «إنَّ سياسة بلدكم قذرة».

فقال الإنجليزي بكلِّ ما يتمتع به الإنجليزي من برود: «نعم، ولكن ليس ضدَّ شعبنا وبلدنا على أيِّ حال».

الحقيقة أنَّ هٰذه الإجابة تختصر كثيراً من الكلام في الإجابة عن معظم الأسئلة السَّابقة، فالعقلانيَّة، وخاصَّة العقلانية السِّياسيَّة، عقلانيَّة بالنسبة إِلَى صاحبها، وليس من الضَّروري أن تكون نتائجها مرضيةً لصاحبها وإن تقبلها. ومن الضرورة المنطقيَّة أنَّها لن تكون مرضيةً للآخرين بالضَّرورة. وهٰذا ما يتَّضح جليًّا الآن في السِّياسة الأمريكيَّة والسياسة البريطانية خاصَّة. وكلُّ ذلكَ منطقيٌّ ومقبولٌ، طالما

أنَّ الممارسة عقلانيَّة بالمعنى المتسق مع قواعد الفكر السليم. أمَّا العقلانيَّة السياسيَّة العربيَّة فإنَّ للحديث شؤوناً وشجوناً.

من السَّهل أن نتفهَّم الدَّوافع الَّتي تقود السِّياسي إلَى الاستبداد والقمع والقسوة والظلم، وليس من الصَّعب، وإن كان على مضضٍ، أن نسوِّغ مثل هٰذه السلوكات، ونتقبلها على أنَّها ضروريَّة، وأنَّها فرضتها الظروف أَو غير ذَلكَ. ولٰكن كيف يمكن أن نقتنع أَو نقبل أَو نسوغ للسياسي أن يقدِّم لأعداء شعبه ووطنه وأمته الأسلحة والأموال والأسرار الَّتي تمكن هذا العدو من استباحة حرمات هٰذا الشعب وامتهان كرامته وعزته وهويته؟!!

قَدْ يبدو في الأمر شيءٌ من المبالغة، ولكنَّ هٰذه هي الحقيقة، والوثائق والحقائق الَّتي تؤكِّدها كثيرةٌ جدًّا. والسَّبب الرَّئيسيُّ في ذَلكَ هو أنَّ هؤلاء السِّياسيين جعلوا من استئثارهم بالسُّلطة حقًّا غير مكتسبٍ اكتساباً، وإنَّما حقًّا طبيعيًّا، فطريًّا، إلهيًّا، مقدَّساً لا يجوز المساس به. وتعاملوا مع شعوبهم على أنَّهم أعداء لهم، وتعاملوا مع الأعداء على أنَّهم أصدقاء لهم وحلفاء وحماة. ولذَلك كانت عقلانيتهم السياسيَّة عقلانيَّة بالنسبة لهم ومنطقيَّة، ولكِنَّها مقلوبةٌ ومشوَّهةٌ، ولذَلك كانت نتائجها مأساويَّةً لا تزان بميزان[١٢].

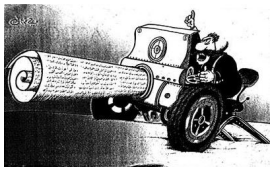

(١٢) . نشر هذا الفصل بعنوان: العقلانية السياسيَّة العربيَّة؛ نتائجها دليل عليها في مجلة **الوفاق العربي** . تونس . العدد ١٩ .كانون الثاني ٢٠٠١م.

الفصل السابع

العرب

متى يستفيدون من دروس التاريخ؟!

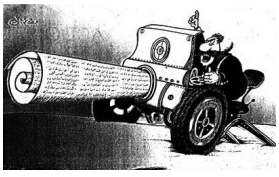

(التَّاريخ لا يعيد نفسه إلاَّ على الأغبياء)، عبارةٌ تختصر ببلاغةٍ بديعةٍ ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان مع الواقع.

ولٰكن هل كلُّ ما يجب أن يكونَ يكونُ فعلاً؟

هٰذا هو السُّؤال الذي تجب الإجابة عليه أولاً لأنَّهُ هو الذي يقدِّم لنا مفتاح الحلِّ لا الحلَّ.

ثَمَّةَ إجماع بَيْنَ الفلاسفة على أنَّ الواقع ليس هو بالضَّرورة ما يجب أن يقع أو يكون، ولـذلك وجدنا عند كلِّ الفلاسفة تمييزاً بَيْنَ أحكام الوجوب وأحكام الوجود. وهٰذا، بكلِّ أسفٍ، يعني أنَّهُ من الممكن جدًّا ألاَّ يكون العرب قَدْ استفادوا من هٰذه المحنة القاسية الَّتي يقال إنَّ الشعب الفلسطيني قَدْ تعرض لها، بَيْنَما حقيقة الأمر أنَّ العالم العربي كله هو الذي تعرض لهٰذه المحنة ولم يزل. وهٰذا يعني أيضاً، وبكلِ أسفٍ أيضاً، أنَّ عدم استفادة العرب من هٰذا الدَّرس تجد في الفارق بَيْنَ الوجوب والوجود ما يسوِّغها. ولكنَّ المفرح في الأمر هو أنَّ عبارة (التَّاريخ لا يعيد نفسه إلا على الأغبياء) تقلب التَّسويغ رأساً على عقب، فبدلاً من أن يكون تسويغ عدم الاستفادة من الدرس صكًّا بالبراءة فإنَّهُ سيجسِّدُ الدَّليل القاطع على الإدانة... بل على ما هو أشدُّ من الإدانة... على الغباء.

لم يكن المفكرون العرب وحدهم هم الذين يطلقون صيحات التَّحذير والتشوير في وجوه الحكام العرب والجماهير العربيَّة بل كثيرٌ من المفكرين الغربيين والسياسيين العالميين صرخوا محذرين العالم العربي حاثِّين إياه على الاستفادة من دروس الحاضر والماضي، ولو أردنا حصر المفكرين والمثقفين والسياسيين الغربيين

الـذين وجهـوا صـيحات التحـذير للعـرب وللحكـام العـرب للاسـتفادة مـن دروس التاريخ والواقع لوجدنا كثيراً من الصُّعوبة، واحتجنا إِلَى كثير من الوقت، وكلاهما أمر يحتاج إِلَى فريق بحث كبير.

الطَّريف في الأمر أَنَّهُ بعد كلِّ جعجعة ومعمعة يلوح في الأفق ما يوحي بأنَّ العرب؛ حكَّاماً وحكومات وجماهير قَد استفادوا من درسها. وترتفع شعارات البناء وإعـادة البنـاء والتَّـوازن والتَّنمية وإعـادة الهيكلـة... وتميـل أحكامنـا إِلَى القطـع بأنَّنـا سنربح الجولة القادمة، وبأنَّ المرحلة القادمة ستكون مرحلة المجد المنتظر... ومع ذَلكَ كلِّه نجدنا دائماً في أوَّل كلِّ جولةٍ جديدةٍ، أو معمعةٍ صغيرةٍ جديدةٍ نغرق في شبر ماء!! ونبدو كياناً منتهكاً وباباً مخلَّعاً!!

ترجع المشكلة في حقيقة الأمر إِلَى أكثر من سبب، ولا نغلو إذا قلنا إنَّ أولها وأكثرها أهميَّةً هو الْهُوَى السَّحيقة الَّتي تفصل بَيْنَ الحكام والجماهير ليس فيما يخص المسألة الديمقراطية وحسب بل في الطموحات والأهداف والغايات.

لَقَد أثبت الواقع حَتَّى اللحظة الراهنة، لحظة انتهاء الإعداد لهٰذا الكتاب الَّتي لا نتمنى استمرارها، أنَّ معظم الحكام والحكومات العربيَّة في وادٍ والجماهير العربيَّة في وادٍ آخر، فيما يتعلَّق بمستقبل الأمَّة ومصيرها، وقضاياها الاستراتيجيَّة والخطيرة. وبدا الحكام العرب أعداء لجماهير أقطارهم، وأعداء أشداء لمجموع الأمَّة: الجماهير والمصالح والهويَّة والتُّراث والحاضر والمستقبل. وقد بَيَّنا في بعض فصول هٰذا الكتاب بعضاً من أوجهِ هٰذه الحقائق الَّتي باتت من الشُّيوع والمصداقيَّة على حدٍّ يصعب معه التَّنكُّر لها أو محض محاولة التَّفكير في دحضها أو تكذيبها.

لَقَد وضح أشدَّ الوضوح الآن البون الشَّاسع بَيْنَ الحكام والجماهير في كلِّ ما يتعلَّق بمصالح الأمَّة من مختلف زوايا النَّظر، وبان جليًّا اتساع الشَّرخ بَيْنَ مصالح

الفريقين وتطلعاتها، وانفضح هٰذا التَّقاطب في المصالح، وهٰذا ما أدَّى إِلَى نتيجةٍ خطيرةٍ هي أَنَّهُ لم يعد أحدٌ يخاف من اتهام هؤلاء الحكام بالخيانة والعمالة. وهٰذه مصيبةٌ كبرى لأنَّ انعدام الثِّقة المفضوح بَيْنَ الحاكم والمحكوم، مع بقاء الحال على ما هو عليه، لن يكون معروف النَّتائج ومن ثَمَّ لن يكون مأمون العواقب.

إنَّ ما يمكن الحديث عنه بثقةٍ الآن، من هٰذه النتائج، هو أنَّ الحكَّام العرب قَدْ فقدوا جماهيرهم، رُبَّما ستظلُّ الطَّاعة قائمةً ردحاً من الزَّمان، ولٰكن طاعة عدم الاحترام، وطاعة اللامبالاة، وهٰذا ذاته سيؤدِّي إِلَى نتائج خطيرةٍ، على الأقلِّ الأقل، على أخلاق جماهير الأمَّة لن تكون إلا سيِّئة، ولن تكون منعكساتها إلا شديدة السلبيَّة. ولٰكنكن صادقين هنا؛ إنَّ أخطر ما يواجه جماهير الأمَّة العربيَّة الآن هو استسهال الخيانة وتسويغها. فهل ثَمَّةَ ما يخشى منه بعد ذٰلكَ على مستقبل الأمَّة ومصيرها؟؟!

الذي يهمنا في هٰذا الأمر هنا هو ما يبدو من عدم رغبة الحكام العرب تحديداً في الاستفادة من كلِّ الدروس الَّتي تعرضت لها الأمَّة العربية طيلة القرن العشرين على أقل تقدير، ولا من دروس التاريخ الَّتي لا تعدُّ ولا تحصى. ولن نناقش هنا سبب شيوع هٰذه الفكرة لأنَّها نوقشت إِلَى الحدِّ الذي يجعل من الابتذال العودة إليها، وحسبنا أن نسأل هنا عن آخر الدُّروس وهو درس انتفاضة الأقصى المبارك الَّتي نعيشها منذ نحو سنتين.

على الرَّغْمِ مما يبدو من بعض الاستفادة من المحنة الَّتي تتعرض لها الأمة العربية قاطبة في هٰذه الآونة على صعيد الحكَّام فإنَّ حقيقة الأمر غير ذٰلكَ تماماً، لأنَّ هٰذه المرَّة لا تختلف أبداً عن المرات السَّابقة، خاصَّةً وأن الحكَّام العرب مازالوا هم أنفسهم بمعنى من المعاني، أو بمعنى أكثر دقَّة إن البنى السُّلطويَّة العربيَّة لم تزل

هي ذاتها منذ مطالع الاستقلالات العربية وحَتَّى الآن، اللهم إلا استثناءات نادرة لا يجوز تعميمها، لأنَّها الاستثناءات الَّتي تؤكِّد القاعدة ولا تنفيها.

وعلى الرَّغْمِ من أن هٰذا الاستمرار في السُّلطة فترة زمنيَّةً طويلةً يفترض منطقيًّا وجوب وجود حركة تطوريَّة تفرض على هٰذه البنى السُّلطوية الاستفادة من الدروس اللاحقة على الدروس الَّتي لم يستفيدوا منها في الفترة الزمنيَّة الطويلة الَّتي حكموا فيها على الأقلِّ، فإنَّ هٰذا قَدْ يعني في الوقت ذاته أيضاً أو يفترض إمكان الاعتياد على (التطنيش) والرِّضا بعدم الخروج بأيِّ فائدةٍ. ومن شديد الأسف والحسرة أنَّ الاحتمال الثاني هو الذي كان، فقد فضَّل هؤلاء الحكام (التَّطنيش) وعدم سلخ أقلِّ جهد لمحاولة التَّفكير في أقلِّ الاستفادة من الدروس الَّتي يمرُّون بها هم ذاتهم لا غيرهم. وعلى هٰذا الأساس فقد بات من باب الأولويَّة أنَّهم لم يستفيدوا من آخر الدروس الحيَّة، والَّتي مازالت حيَّة نازفة الجراح حَتَّى الآن وهو درس الانتفاضة الفلسطينيَّة الثَّانية.

إنَّ الذي يدلُّ على عدم استفادة الحكام العرب من درس المحنة هٰذا هو الواقع لا التَّخيُّل ولا القياس ولا الاستنتاج، فكلُّ المعطيات تشير إِلَى مزيد من الانغماس في لعبة عدم الاستفادة من دروس الحاضر والماضي، على الرَّغْمِ من بعض الحراك السياسي الخادع الذي يوحي بأن ثَمَّةَ صحوة موجودة أو قادمة. فما ذَلكَ، في أغلب الظنِّ، إلا لذرِّ الرَّماد في العيون. ومن باب ذرِّ الرَّماد هٰذا من الممكن أن نجد بعض التَّطوُّرات والتَّغيُّرات على العلاقات العربيَّة العَربيَّة كما حصل في الآونة الأخيرة بَيْنَ العراق وبعض دول الخليج العربي، ولٰكنَّ هٰذا التَّطور لن يكون مسخَّراً لصالح الأمَّة بوصفها مجموعاً، وإنَّما هو لأغراض مرحلية رجَّح ويرجِّح أبرز المحللين والمتابعين أن الغرض منها هو امتصاص نقمة الشَّارع العربي وفورانه

الذي كاد يشكِّل خطورةً واضحة على كثيرٍ من الأطراف. وذهب بعضٌ آخر من المحللين إِلَى احتمال أن يكون الغرض من ذَلكَ أيضاً تمرير بعض المخططات الخيانيَّة الَّتي تمسُّ حقوق شعبنا في فلسطين خاصَّة والأمَّة العربيَّة عامَّة.

أمَّا الجماهير العربيَّة فقد حقَّقت في هٰذه الانتفاضة، بفضل الإعلام المفتوح إِلَى حدٍّ كبير، تقدُّماً كبيراً في الوعي وهٰذا التقدُّم بحدِّ ذاته درسٌ كبيرٌ له أهميته التاريخيَّة. ولكنَّهُ ظلَّ، لأسباب تاريخيَّة، دون الحدِّ المطلوب أو الواجب. ورُبَّما ولأسباب تاريخية أيضاً لن يستطيع القيام بما هو مرتقب منه ومعقود عليه في هٰذه المرحلة التَّاريخيَّة الحاسمة من عمر الأمَّة(١٣). وهٰذا العجز عن ممارسة المهمة المطلوبة، أو القيام بها هو ما تقول به في الافتراضات النظريَّة المنبثقة من طبيعة الواقع والمعطيات التاريخيَّة المرافقة له من مختلف النواحي؛ النفسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والاستراتيجيَّة وغيرها.

هٰذا يعني من زاوية أُخْرَى أنَّ الجماهير العربيَّة ذاتها قَدْ «خرجت من المولد بلا حمص»، مقتفية بذَلكَ سنن حكامها، مؤثرة عدم مخالفتها، ورُبَّما كان لمثل هٰذا الأمر قول الحكماء القدماء: «الرَّعية على دين ملكها». وكذلك القول المأثور: «كما تكونوا يولَّى عليكم».

وطالما أنَّ عدم الاستفادة هو النتيجة المتحقِّقة على أرض واقع الجماهير العربيَّة، فرُبَّما لم يعد من المهم كثيراً، هنا فَقَطْ، معرفة الأسباب الَّتي أدَّت إِلَى عدم استفادة الجماهير العربيَّة من آخر الدروس، ومن الدروس السَّابقة. فالنَّتيجة هي

(١٣) ـ كلُّ مرحلة من تاريخ الأمَّة، أي أمَّة، هي مرحلة حاسمة في حقيقة الأمر. ولكن بعض المراحل تتسم بحساسيَّة معينة تجعلها تبدو على مفترق خيارات مصيريَّة حاسمة أكثر من غيرها.

توافق مع إرادات الحكام في تقرير عدم الاستفادة من دروس الحاضر والتاريخ، أو الأقل عدم ضرورة استثمار الفوائد المجنية من هٰذه الدروس.

لا ضير أبداً في حمل هذا الكلام محمل التعميم، ولكن لأنَّ موضوع كلامنا هو الصراع العربي الإسرائيلي ومستقبل السَّلام فمن الضروري التَّخصيص، وليكون التَّخصيص صادقاً لا بدَّ من الإشارة إِلَى أنَّ صدق الحكم في عمومه على الجماهير العربيَّة غير دقيق تماماً، لأنَّ عموم الجماهير العربيَّة تقف من الكيان الصهيوني موقفاً ثابتاً لم يتغير إلا في الشذوذ النادر الذي لا يمكن نفيه. وقد تعزَّز موقف الجماهير العربيَّة هذا أكثر في الآونة الأخيرة، وإنَّما قصدنا من عدم الاستفادة من الدرس أو الدروس هو عجز هذه الجماهير عن الفعل، واستمرار السلبيَّة والانفعال في تحديد مسارات التفاوض العربي الإسرائيلي، والعلاقات العربيَّة الإسرائيليَّة القائمة على قدم وساق بين كثير من الدول العربيَّة وإسرائيل منذ أوقات غير قريبة، والمتزايدة على نحوٍ ملفت للانتباه، ومثير للشكوك، في ظلِّ الانتفاضة الثانيَّة الَّتي ارتكب الكيان الصهيوني فيها من المجازر أكثر من أيِّ وقت مضى، وبعنجهيَّة مقرفة، مقززة، تقشعرُّ لها الأبدان، وتستجلب الغثيان. وعلى الرَّغْمِ من ذلك تتكالب بعض الدول العربيَّة على إقامة العلاقات التجارية والسياسيَّة مع الكيان الصهيوني.

هنا يثور التساؤل الكبير: لماذا يقوم هؤلاء الحكام العرب بذلك؟

رُبَّما نخرج هنا عن إطار سؤالنا المحوري الذي كان: متى يستفيد العرب من دروس التاريخ، لأنَّ ما يبدو هنا خارج عن دائرة الاستفادة من الدروس، فالحقائق ماثلة أمام الأعين مثولها يفقأ عين الجاحد، وعلى الرَّغْمِ ذلك تأتي الممارسات وكأَنَّها لم تر من ذلك شيئاً.

نحن هنا أمام مفارقة أكثر هي من أحجية أو لغز، إننا أمام ما يبدو تعمُّد عدم الاستفادة من دروس الحاضر والماضي. والسُّؤال الذي سيطرح نفسه بالبداهة هو: لماذا؟

رُبَّما كان اتهام الحكام العرب أو معظمهم بالخيانة هو الجواب الأكثر إراحة للنفس، لأنَّهُ يختصر كثيراً من المسافات والوقت ويقدم تفسيراً هو الأكثر إقناعاً، على الأقل في الظروف الراهنة. والحقيقة لا تعدو ذلك كثيراً، إذ من الصَّعب، بل من المتعذَّر تبرئة ساحة معظم الحكام العرب من تهمة الخيانة. ولكن هذا التفسير ينسى أو يتجاهل حقيقة أُخْرَى جدُّ مهمَّة هي الشرط التَّاريخي للاستفادة من الدُّروس واستثمار هذه الاستفادة.

لا شكَّ في أنَّ الواقع المتخلِّف المتردِّي الذي تعيشه الأمَّة العربيَّة قاطبة بما ينشعب إليه هذا التخلُّف من ضعفٍ وتهلهلٍ وترهُّلٍ وتشرذم وتشظٍ وتقوقع وغير ذلك هو الذي يؤدي إِلَى الحيلولة دون حسن الاستفادة من دروس الحاضر والتاريخ، فالتَّخلُّف ليس محض تأخُّر في العلم والتِّقانة والأخلاق والعادات... وإنَّما هو في الدَّرجة الأولى تخلخل البنية الفكريَّة للأمة وتخلفها؛ أفراداً وجماعات ومجتمعات، أي بمعنى آخر عجز العقليَّة الفرديَّة والجمعيَّة عن مواكبة الواقع ومستجدَّاته على مختلف المستويات والميادين، وعدم قدرتها على تسخير الواقع والوقائع والأحداث والاستفادة منها الاستفادة المثلى على الأكثر، والاستفادة الممكنة في حدود الطاقات والإمكانات المتوافرة على الأقل.

يمكن تسمية هذا العجز بقلَّة الحيلة والتدبير، وأبرز ما يقود إِلَى ذلك هو الجبن وسوء التقدير، ولكثرة ما عانت الأمَّة من مثل هذه الحال على مرِّ تاريخها

زعمت أنَّ رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «لا أخشى على أمتي الفقر، وإنَّما أخشى عليها قلَّة التَّدبير»(١٤).

قَدْ يبدو هذا الأمر عصيًّا على التَّفسير، والحقُّ أَنَّهُ صعب التفسير. ولكن إذا طلبنا المدد من علم النفس لوجدنا فيه ما يمكن أن يقدم لنا بعض ما يفسر لنا هذه الظاهرة، وحسبنا أن نقول إنَّ التَّخلُّف يكافئ الضَّعف، والضعف يؤدي إِلَى الوهن النفسي والعقلي، والوهن النفسي والعقلي يجعل صاحبه؛ فرداً أو مجتمعاً معرَّضا للإيحاء بسهولة، والإيحاء يمارس على نحو مباشر وغير مباشر، من الذات ومن خارج الذَّات، والعلاقة بين الأفراد والمجتمعات والأمم أيًّا كان طرفا العلاقة تنطوي على ممارسة هذا الإيحاء المباشر وغير والمباشر. وإذا عرفنا أنَّ الإيحاء هو ضرب من السيطرة والتلقين أمكننا أن نفهم منبع قلة الحيلة والتدبير في فهم الدروس والاستفادة منها.

قَدْ يبدو في هذا الكلام ما يوحي بأننا نسوِّغ عدم استفادة العرب؛ حكاماً وشعوباً من دروس الحاضر والماضي. والحقيقة خلاف ذلك تماماً لأنَّ فهم الظاهرة لا يعني قبولها، ففهم دوافع السرقة مثلاً لا يعني قبولها أَو الإقرار بها، وفهم سبب الوقوع في أيِّ خطأ لا يعني قبوله أو تسويغه أو إقرار صاحبه عليه.

---

(١٤). ليس هذا الكلام من رسول الله، وفي نسبه إِلَى الرسول ﷺ ما يشير إِلَى مدى معاناة الأمة من مثل تعاني منه الآن. أما الحديث الصحيح كما جاء عند البخاري فهو قوله: «وَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». وهو الحديث ٢٩٢٤ من كتاب الجزية والموادعة من صحيح البخاري، وكذلك الحديث رقم ٣٧١٢ من كتاب المغازي من صحيح البخاري، وورد باللفظ ذاته وبلفظ آخر عند مسلم وفي معظم المسانيد. وربَّما يكون الحديث الذي يعبر أكثر عن حالتنا هو الحديث ٧٧٢٨ من مسند الإمام أحمد الذي يقول ﷺ فيه: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْعَمْدَ».

إنَّ تسويغ عدم الاستفادة من الدروس أمر غير مقبولٍ بحالٍ من الأحوال، ولا سيما أنَّ الدروس من الوضوح بما يجعل من المعيب المخزي ألا نستفيد منها، ونستثمر الظروف لتجاوزها وعدم الوقوع في أخطائها مرَّة أُخْرَى.

فإذا افترضنا أننا أفدنا من الدروس فهل من السهولة بمكان استثمار هذه الفائدة؟

الحقيقة أنَّ هذا الأمر ليس متاحاً بسهولة أيضاً، لأنَّ طبيعة الصراع بين الحضارات والأمم تجعل الأمم القويَّة تمارس ما أمكنها من الضغوط للحيلولة دون أيِّ استثمار لأيِّ فائدة من أيِّ درس في إطار صراع الحضارات وتنافسها، وكثيرون يعلمون أنَّ الدول الصناعيَّة تضع حدوداً لا يجوز لدول العالم الثالث تجاوزها في الصناعة والتصنيع واستخدام التقنية.

هذا أمر واقع فعلاً، ومعرفته لا تعني الدعوة للرضوخ له، ولا القبول به، ولا الاستكانة له، وإنَّما ينبغي أن تفرض علينا أن نفكر في كيفية كسر أطواق هذه الحدود بحكمة وحنكة تحول دون تعرضنا للتهديدات الَّتي تمارسها الغطرسة الغربيَّة علينا.

ولكنَّ المشكلة الأكثر أهميَّة وخطورة الَّتي تعترضنا هنا، أي في إطار فهمنا لمعنى الاستفادة من دروس الحاضر والماضي هي أننا ننطلق في تعاملنا مع الدرس المستفاد وكأنَّنا طرف واحد لا مقابل له، وكأنَّنا نحن فَقَطْ من يستفيد وغيرنا واقف من دون استفادة مما نستفيد!! ولنقوم بعد ذلك بافتراض أنَّنا سنتصرَّف والآخر لن يتصرَّف!!

إذا كنا قد استفدنا من هٰذه المحنة أو تلك، واتخذنا من التدابير ما يسمح لنا باستعادة نفوذنا ومكانتنا فهل يعني هٰذا أنَّ الولايات المتحدة وأوروبا والكيان الصهيوني... سيقفون مكتوفي الأيدي.

إنَّ أكبر الأخطاء الَّتي ارتكبناها في الماضي هي افتراضنا أننا استفدنا من الدروس وغيرنا لم يستفد منها، ومبادرتنا على أساس أن الآخر سيظلُّ يتصرف كما

لو أَنَّهُ لم يعرف أننا استفدنا، وكما أَنَّهُ لم يستفد مما استفدنا، ولذلك ظللنا نُحْبَطُ المرَّة تلو الأُخْرى... هٰذا على افتراض أنَّنا استفدنا فعلاً من الدروس. فمتى ندرك أنَّ غيرنا يعقل كما نعقل، ويستفيد كما نستفيد، وأَنَّهُ يسبقنا بشوط بعيد؟؟!

المطلوب إذن هو ليس محض الاستفادة من الدَّرس بحدِّ ذاته، وإنَّما الاستفادة مما استفاده الآخر، فبهذه فَقَطْ يمكن فعل شيء، لأنَّهُ سيكون من السَّهل توقع الدرس القادم، وتوقع ساحة المعركة القادمة وطبيعتها وأسلحتها، ويصبح بذلكَ من السهل على الأقل تفادي الهزيمة... على الرَّغْمِ من أن موجبات الانتصار معظمها متوافرة!!

من الخطأ، بل من كبير الخطأ الظَّنُّ أنَّ الأمة العربيَّة ضعيفة، أو أنَّها غير قادرة على الفعل، أو عاجزة عن المواجهة. ومن عظيم الخطأ الظنُّ أنَّ الوقت قَدْ فات، وأنَّنا لن نستطيع اللحاق بمركبة الحضارة. الفرصة قائمة دائماً، ولكِنَّها تحتاج إِلَى حسن استثمار. والإمكانات اللازمة لحسن الاستثمار أكثر بكثير مما يظنُّ الظانون... إنَّها عند اللزوم معجزات لا تصدق.

فهل نبدأ؟

هل نستفيد من دروس التاريخ؟

وهل نستفيد من دروس الحاضر الَّتي تكفي وحدها؟

وهل نستفيد من الظروف الَّتي تأتي معظمها لخدمة أمتنا ونرفضها؟

دمشق في ٢٠٠٣/٥/١٩م

الفَصْلُ الثَّامِن
التطبيع بين السنة وفرض العين

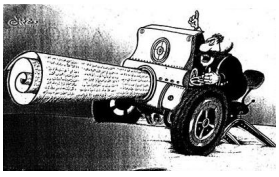

لعلَّنا لا نأتي بجديدٍ إذا قلنا إنَّ مشكلات العالم العربيِّ، ومشكلات العرب مع العرب على نحوٍ خاصٍّ، مرتبطةٌ ارتباطاً صميميًّا بزرع الكيان الصِّهيوني في قلب الوطن العربي، فباسم القضية الفلسطينيَّة، وتحرير فلسطين، والدِّفاع عن قداسة القدس والأقصى؛ تحارب العرب مع كلِّ العرب، وتعززت الحدود وتمتنت، وتكرَّست القطريَّة وتجذرَّت، وحول العرب مواجهاتهم وتحدياتهم للقضاء على التَّخلف والفقر والاستعمار... إلى مواجهات ضدَّ بعضهم، فكثرت الأحلاف والمعسكرات التي تتغير أطرافها بَيْنَ العشية وضحاها بما يدلُّ على مدى عمق المبادئ والغايات التي قامت عليها هٰذه الأحلاف!!!

الطَّريف في الأمر أنَّ ما أنفق من مالٍ ووقتٍ وجهدٍ... على الخلاف العربيِّ العربيِّ، والكيد العربيِّ العربيِّ، والمؤامرات العربيَّة العربيَّة... يفوق ما أنفق على الصِّراع العربيِّ الإسرائيليِّ بملايين المرَّات، على الرُّغم من أنَّ الخلاف دائر على القضيَّة الفلسطينيَّة والصِّراع العربيِّ الإسرائيليِّ. والأساليب التي تحارب أو تخاصم بها العرب تمتعت بدهاء وحنكة لو استخدم عُشْرُ عُشْرِها في الحرب مع إسرائيل لكانت إسرائيل غير موجودةٍ منذ زمنٍ طويلٍ... وعلى الرَّغْمِ من ذٰلكَ كلِّه لم يتورَّع بعض الحكام العرب عن إقامة علاقات سريَّة مع الكيان الصهيوني منذ قيام إسرائيل أو بعد بأقلِّ القليل، إلى جانب العلاقات التي كانت قائمةً بَيْنَ الحركة الصهيونية وبعض الحكام العرب منذ ما قبل قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. ولقد كانت هٰذه العلاقات السَّرية على درجة من الكثرة جعلت من الصَّعب حصرها في

مجلدٍ واحدٍ، فما استطاع **محمد حسنين هيكل** جمعه كان في ثلاثة مجلدات ضخمة[١٥] حملت عنوان: المفاوضات السريَّة بَيْنَ العرب وإسرائيل، وكان من الصَّعب أيضاً أن يستطيع باحث واحد الوقوف على كلِّ هٰذه العلاقات فتصدَّى آخرون لتأريخها منهم **شارل أندرلين** الذي وضع كتاباً في مجلدين ضخمين اسمه أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية من ١٩١٧م حَتَّى ١٩٩٧م[١٦].

ولو اقتصر الأمر على إقامة العلاقات السرِّية، على كثرتها المدهشة وخفاياها المريعة، لكان في الأمر ما يمكن أن يبتلع على مرارته، ولٰكن تجاوزا ذٰلكَ إلى تقديم الخدمات والأسرار الاستراتيجية إلى إسرائيل كي تعزز مواقعها وقوتها في حربها ضدَّ العرب، والأمثلة على ذٰلكَ، لشديد الأسف جدُّ كثيرةٍ. وقد أمست من الشهرة بمكانٍ يعفينا من تكرارها. ولكنَّنا لا نستطيع إلا أن نذكر على سبيل المثال أنَّ إسرائيل تقوم على المال العربي على نحوٍ خاصٍّ، سيَّان ما كان يصلها على نحوٍ مضمرٍ وغير مباشرٍ، أو ما يصلها وصولاً علنيًّا غير مباشر مثل ما حدث في أثناء حرب تحرير الكويت عندما طلبت إسرائيل ١٠ مليارات دولار ثمناً لسكوتها وعدم دخولها على الحرب ضدَّ العراق، فأعلنت السعودية في اليوم التالي مباشرة تبرعها للولايات المتحدة بأحد عشر مليار دولار (عشر مليارت لإسرائيل ومليار عمولة للولايات المتحدة). ومن الأمثلة أيضاً قيام الملك **حسين بن طلال** في عام ١٩٧٣م بتحذير **جولدمائير** من (تآمر) سوريا ومصر على إسرائيل، والتَّخطيط لشنِّ حرب عليها. وقيام **السادات**، بغضِّ النَّظر عن فعاله الكثيرة، بإهداء إسرائيل الأسلحة التي كان يحارب بها لتعرف أسرارها، الأمر الذي أدى مباشرة إلى

(١٥) . محمد حسنين هيكل: **علاقات العرب السرية مع إسرائيل**.

(١٦) . شارل أندرلين: **أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية** . ترجمة صياح جهيم . دار الفاضل . دمشق.

انكشاف السلاح العربي كله أمام إسرائيل وإخفاقه الأكيد في أيِّ مواجهة، وهٰذا ما حدث في أثناء غزو لبنان مع الجيش السوري الذي أُسْقِطَ في يده بسبب انكشاف أسرار سلاحه، خاصَّةً وأنَّه لم يأخذ الفرصة الكافية لدرء خطر هٰذا الانكشاف.

ومن الأمثلة الطَّريفة على ذٰلكَ خبر تناقلته وسائل الإعلام في السابع والثامن من شباط عام ٢٠٠٠م عنوانه: (جريدة إسرائيلية تقول: المخابرات الأردنيَّة تفوقت على الموساد)، وفيه: «ذكرت جريدة (جيروزاليم بوست) الإسرائيلية نقلاً عن تقرير صحفي أمريكي أنَّ جهاز المخابرات الأردني أصبح أهمَّ شريك لوكالة المخابرات الأمريكيَّة (سي أي إيه) في التَّصدي لمن سمَّتهم (الإرهابيين الإسلاميين)... مشيرة إلى أنَّ المخابرات الأردنية تفوَّقت في هٰذا الشَّأن على جهاز الموساد الإسرائيلي... وأصبحت أهميتهم تزيد بكثيرٍ عن الأهميَّة التي يتَّصف بها الإسرائيليون أنفسهم في مجال مكافحة (الإرهابيين الإسلاميين)»[١٧].

الأكثر طرافة من ذٰلكَ أنَّ ذٰلكَ كلُّه كان مترافقاً مع ادِّعاء كلِّ دولة عربيَّة أنَّها الأمُّ الرؤوم للفلسطينيين، والأكثر حرصاً على فلسطين، والأكثر سعياً لتحرير فلسطين، والأكثر تضحية من أجل فلسطين... والذي يوصل الطَّرافة والغرابة والإدهاش إلى ما يفوق حدود الخيال؛ أخصب خيال، أنَّه لم تكد الظروف الدُّوليَّة تضع دول الطوق، أو المواجهة، وهي فلسطين وسوريا ولبنان تحديداً، أمام خيار وحيد هو مفاوضات السَّلام... حتَّى تهافتت كثير من الدول العربية على الارتماء في أحضان إسرائيل ارتماءً، لا محض إقامة علاقات سياسية أو تجارية أو غيرها...

(١٧) . انظر مثلا: جريدة **الاتحاد** . أبو ظبي . العدد ٨٩٨٣ . الثلاثاء ٣ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق لـ ٨ شباط ٢٠٠٠م . ص٢٢.

إنَّ تتبع هٰذه الارتماءات يشعر وكأنَّ الارتماء في أحضان الكيان الصهيوني هو الذي يعيد الشباب إلى الأشياخ، أو ينفخ الأرواح في الأجساد. وعند مساءلة هؤلاء المرتمين في أحضان إسرائيل عن الأسباب التي دفعتهم إلى ذٰلكَ تتفاوت أجوبتهم بَيْنَ حدَّين أحلاهما مرٌّ، وأقلهما يضع العقل في الكف حيرة:

فبعضهم، باسم الاستقلاليَّة والإرادة الحرة، يمنع حقَّ المساءلة حتَّى على أبناء شعب قطره، ويفرض التَّطبيع مع الكيان الصهيوني على شعبه بصور تبدأ بالتَّمهيدات اللبقة مثل الجزائر، والمغرب، ومصر إلى حدٍّ ما، ومعظم دول الخليج العربي، وتنتهي بالإكراه كما في الأردن وقطر وموريتانيا وغيرها.

وبعض آخر يعلن من دون أي حياء أنَّ العلاقات مع إسرائيل ستقوم بغضِّ النَّظر عن أيِّ نتائج للمفاوضات. ففي التَّاسع من شهر أيلول عام ٢٠٠٠م اختتمت ما سميت بقمَّة الألفيَّة، وهناك التقى أمير قطر **حمد بن خليفة آل ثاني** برئيس وزراء إسرائيل **إيهود باراك** لقاءً وصفه ناطقٌ إسرائيلي بأنَّه لقاء حار سادته روح المحبة والصداقة. وقد علق وزير الخارجية القطري على (الاحتجاجات العربيَّة) بقوله: إن قطر لا تأخذ إذناً من أحد للاجتماع **بباراك**. وعلاقاتنا مع إسرائيل ستقوم مهما كانت نتيجة المفاوضات(١٨).

وبعضهم يسوِّغ ذٰلكَ بأنَّهم يقيمون العلاقات مع إسرائيل لأنَّ مصالحهم الاقتصادية والسياسيَّة تقتضي ذٰلكَ. ومنهم على سبيل المثال موريتانيا، التي احتجت بأنَّها ستموت من الجوع، وربَّما يطردها الله من رحمته، إن لم تقم العلاقات الوثيقة مع إسرائيل... وكأن العرب لم تقل يوماً:

---

(١٨) . انظر مثلاً: هشام حسين أبو حشيش: **أمير قطر في الجانب الإسرائيلي حتى لو فشلت عملية السلام**. ضمن جريدة **الكفاح العربي**. بيروت. عدد ٢٠/٩/٢٠٠٠م.

«تموت الحرة ولا تأكل بثدييها»

وكأنَّ العرب لم تقل[١٩]:

عِشْ عَزِيْزاً أوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ
بَيْنَ طَـعْنِ القَنَا وَخَـفْقِ البُنُوْدِ

وكأنَّ العرب لم تقل[٢٠]:

رَأَيْتُ الْحُـرَّ يَجْتَنِبُ الْمَخَازِي
وَ يَحْمِيْهِ عَنِ الغَدْرِ الوَفَـاءُ
وَ مَا مِـنْ شِـدَّةٍ إلاَّ سَـيَأْتِي
لَهَـا مِـنْ بَعْدِ شِـدَّتِهَا رَخَـاءُ

وكأنَّ العرب لم تقل، ولم تقل، ولم تقل...

والأدهى من ذَلكَ كلِّ أنَّ بعضهم وثب فوق كلِّ جدران الأخلاق والأعراف والمنطق والتاريخ والجغرافية وعمدوا إلى إقامة أحلافٍ عسكريَّةٍ مع إسرائيل، والقيام بمناورات عسكريَّةٍ مشتركةٍ، وعلى رأس هٰذا الفريق المملكة الأردنيَّة التي قامت بالعديد من المناورات العسكريَّة المشتركة والمعارك الافتراضيَّة، منذ سنوات، بالإضافة إلى الولايات المتحدة وتركيا. وكلُّ ذَلكَ في العلن الذي تناقلته كلُّ وسائل الإعلام المختلفة. ومما تناقلته وسائل الإعلام أيضاً في أواخر عام ٢٠٠٠م أنَّ الرئيس الجزائري **عبد العزيز بوتفليقة** عاكف دراسة مشروع تعاون ثلاثي: جزائري تركي إسرائيلي، تقدَّمت به الولايات المتحدة وتركيا، وإسرائيل من دون شكٍّ. ورجَّحت ميله إلى الاستفادة من النفوذ الإسرائيلي لتحسين الاستحقاقات الدوليَّة لعهده السياسي[٢١].

---

(١٩). البيت للمتنبي، انظر ديوانه.

(٢٠). البيتان لأبي تمام، انظر ديوانه.

(٢١). انظر مثلا: جريدة **الأخبار العربية**. بيروت. العدد ٨. ٤ تشرين الأول ٢٠٠٠م.

وبعض آخر راح يفكِّر في الأساليب المناسبة لكسب ودِّ إسرائيل ورضاها، فخرجوا علينا بحيل ظنوها ذكيَّةً تنطلي علينا، فأمير البحرين عين نائباً يهوديًّا في آخر برلمان شكَّله قبل إصلاحاته الأخيرة، بزعم أنَّه ممثل للجالية اليهوديَّة في البحرين. أمَّا **بوتفليقة** فقد منح الممثل الفرنسي اليهودي **روجيه حنين** وسام الاستحقاق الوطني الذهبي بدرجة (عشير)، تنويهاً بأعماله الفنيَّة الهادفة إلى التَّواصل بَيْنَ الشعبين الفرنسي والجزائري، متجاهلاً التَّفكير في إقامة ولو قليل من التَّواصل الجزائري الجزائري على الأقل، لا الجزائري العربي، ولا الجزائري الإسلامي!!![٢٢].

والآخرون، ومعهم السَّابقون، يتذرَّعون بأنَّ الدُّول التي كانت تحارب إسرائيل قد أقامت العلاقات معها، فلماذا يحقُّ لفريق ما لا يحقُّ لغيره ؟

إنَّ الإجابات كلِّها منطقيَّة تماماً لا غبار عليها أبداً فيما لو كانت مشكلة التَّطبيع والعلاقات هي مع غير الكيان الصهيوني. بل أكثر من ذَلكَ لو كان الأمر يخص العلاقات مع أيِّ دولةٍ في العالم غير الكيان الصهيوني لما كان ثمَّة ما يدعو أيِّ دولة إلى تقديم أيِّ تسويغٍ لهٰذه العلاقات، بل لما كان ثَمَّة ما يسمح بطرح التَّساؤلات عن سبب هٰذه العلاقات. أمَّا أن تكون العلاقات مع إسرائيل فهٰذا ما لا يمكن أن يمرَّ من دون ملايين موجبات السُّؤال، والاحتجاج، والاستنكار من كلِّ عربيٍّ أينما كان، لأنَّ موانع التَّطبيع مع إسرائيل ومعيقاته أكثر من أن تعدَّ أو تحصى، وكلَّما تلاشى مانع نبعت موانع لا تتلاشى!!

(٢٢) . محمد مقدم: **بوتفليقة يقلد ممثلاً فرنسيا يودياً وساماً** . ضمن جريدة **الحياة** . لندن . العدد ١٣٧٠٣ . الأحد ١٩ جمادى الثانية ١٤٢١هـ الموافق لـ ١٧ أيلول ٢٠٠٠م.

فإذا كان معظم الحكام العرب، وندرة نادرة من الشَّعب العربيِّ، قد ارتضوا بالرغبة الصهيونيَّة وتنازلوا عن الأرض، على الرُّغم من أنَّ الأرض تساوي العِرض، بذريعة أنَّ ما سمِّي بالشَّرعيَّة الدوليَّة هي التي قررت ذَلكَ، فإنَّنا سنقرُّهم على ذَلكَ جدلاً، لا حقيقةً، ونلتمس لتنازلهم عن الأرض الأعذار... ونتساءل: ما الذي يدعو أو يوجب أو يمكن أن يفرض علينا إقامة أيِّ نوعٍ من العلاقة: سياسيَّة، اقتصاديَّة، سياحيَّة... مع كيان اغتصب أرضنا وتنازلنا له عن هٰذه الأرض راضين أو مرغمين؟؟! أليس يعني ذَلكَ سرورنا وفرحنا بأنَّه اغتصب أرضنا؟ أيُّ شعب، أو أمَّة سنكون إذا كنَّا نفرح ونسرُّ ممن يغتصب أرضنا وينتهك عرضنا؟؟!!

ومن ثَمَّ إذا كانت دول الطَّوق، أو المواجهة ملزمةً بإقامة حدٍّ أدنى، أو معين من العلاقات مع الكيان الصهيوني لتأكيد حسن النوايا في إقامة السَّلام، فما الذي يدعو دولاً عربيَّة تفصل بَيْنَها وبَيْنَ إسرائيل عشرات الدُّول إلى إقامة علاقات مع إسرائيل؟ قد يكون الجواب إنَّ إسرائيل دولة مثل أيِّ دولة لا يوجد ما يمنع من إقامة العلاقات معها، أو إنَّ إقامة العلاقات معها ستحقِّق بعض المكاسب الاقتصاديَّة، أو للأمرين معاً.

سنسلم جدلاً أيضاً لا حقيقة بأنَّ إسرائيل دولةٍ كأيِّ دولةٍ، فهل من الضَّرورة أن تقوم العلاقات بَيْنَ كلِّ الدُّول؟ وهل كلُّ دولةٍ مطالبةٌ بأن تقيم علاقات مع كلِّ دولةٍ؟ ومن ثَمَّ هل ضاقت الدُّنيا بالعرب فلم يجدوا في العالم كلِّه دولةً إلا إسرائيل التي تكن كلَّ الحقد للعرب، وتشكِّل أكبر خطر على الوجود العربي... كي يقيموا أو يطبعوا العلاقات معها؟؟!! أليس في الأمر ما يدعو إلى وضع كثيرٍ من علامات الاستفهام والتَّعجب؟

إذن حتَّى ولو عددنا إسرائيل دولةً مثل أيِّ دولة فليس ثمَّة ما يدعو إلى عدِّ إقامة العلاقات معها ضربة لازم، أو مثابةً بفضلها تدخل النَّاس الجنَّة.

الذريعة الأخيرة التي بقيت للمهرولين هي تحقيق المكاسب وتعزيز المصالح الاقتصاديَّة، ونحن نسلم حقيقةً لا جدلاً بأنَّ من حقِّ الدُّول العربيَّة، كأيِّ دولة، أن تبحث عن مصالحها. والسُّؤال الذي يخطر في البال على الفور، وهو الذي يطرحه الشَّارع العربي من محيطه إلى خليجه:

هل من الضَّرورة أن تكون هناك علاقات اقتصاديَّة بَيْنَ كل الدُّول؟ وهل كلُّ دولة مطالبة بأن تقيم علاقات اقتصادية مع كلِّ دولة؟ ومن ثمَّ هل ضاقت الدُّنيا بالعرب فلم يجدوا في العالم كلِّه دولة إلا إسرائيل؛ أعدى أعداء العرب وأخطرهم على الوجود العربي... كي يقيموا العلاقات الاقتصاديَّة معها؟؟!! ومن ثمَّ أيضاً هل انحصرت مكاسب العرب ومصالحهم الاقتصاديَّة بإسرائيل دون دول العالم كلِّها؟؟ هنا لا يمكن التَّسليم لا جدلا ولا حقيقة بأنَّ العرب يمكن أن يستفيدوا من العلاقة مع إسرائيل، والأدلَّة على ذَلكَ أكثر من أن تعد أو تحصى، وقبل أن أقدِّم أي مثال أدعو من كان يعرف مثالاً واحداً عن إخلاص الكيان الصهيوني أو صدقه في التَّعامل مع أيِّ دولة عربيَّة؛ مهرولة أو غير مهرولة، مطبعة أو غير مطبعة، أن يعرفنا به.

لقد كان **السادات** أوَّل الموقعين والمطبعين، وقد شهد قبل اغتياله نتيجة التطبيع، فقد كشفت الوثائق أن تاريخ العلاقات الاقتصاديَّة بَيْنَ مصر وإسرائيل هو تاريخ نشر مخدرات، ونشر الأيدز، وفساد إداري، وأغذية فاسدة، أو مجرثمة، أو مؤديَّة إلى العقم، أو مهيجة جنسيًّا، أو مثبطة

جنسيًّا... وهلمَّ جرًّا مما فرض على الشَّارع المصري الفقير، الذي هو بأمس الحاجة إلى اللقمة الأرخص، أن يرفض التَّطبيع، ويحاربه، ويحارب أي نوع من العلاقة مع إسرائيل.

وإذا ما انتقلنا إلى الأردن لم يختلف التَّعامل أبداً، ويكفينا من ذَلكَ أن نشير إلى أنَّ إسرائيل قد التزمت بتزويد الأردن بالمياه؛ مياه الشرب، في اتفاقية السلام، وعندما ضخت المياه إلى الأردن ضخت مياه أسيقتها وقاذوراتها بذريعة أنَّ الاتفاقيَّة تنصُّ على أن تقوم إسرائيل بتزويد الأردن بالمياه من دون تحديد نوع المياه، وكأنَّ أسيقة أمعاء الأردنيين بحاجة إلى أن تجري فيها القاذورات الصهيونيَّة!!

أمَّا المكاسب التي حقَّقتها موريتانيا فهي دفن النِّفايات النَّوويَّة الإسرائيليَّة في أراضيها كما أشارت معظم وسائل الإعلام العالميَّة منذ أشهر. وإذا ما انتقلنا إلى المغرب وجدنا أنَّ المكاسب التي حققتها هي تلف المحاصيل الزراعيَّة كلما استوردت البذور من إسرائيل لأنَّ البذور حاملة لأمراض تمنعها من الإثمار...!!! هٰذه عيِّنة جدُّ صغيرة من أساليب العلاقات الاقتصاديَّة مع إسرائيل، فأيُّ مكاسب هي التي يمكن أن يحقِّقها العرب من علاقاتهم مع إسرائيل؟ وأيُّ مصالح اقتصاديَّة هٰذه التي يمكن أن تقوم بَيْنَ العرب وإسرائيل؟

لقد كتبنا عن بنية العقليَّة اليهوديَّة في غير هٰذا الموقع، وبرهنا تعذر قيام السَّلام معها، وبغض النَّظر عن هٰذه البنية، مع تعذر ذَلكَ، بأيِّ منطقٍ قبل بعض العرب، أو اقتنعوا بأنَّ مصالحهم تكمن في العلاقة مع إسرائيل، وكلُّ ما ذكرنا حقائق إن خفيت على الجاهل، فلا يمكن أن تخفى على نصف عاقل؟ وهي قديمة لا جديدة.

إنَّ المنطق؛ أيُّ منطقٍ، يقف حائراً أمام السُّلوك العربيِّ، فعل الرُّغم من كلِّ ذَلكَ، وعلى الرُّغم من كلِّ الوثائق التي تثبت هٰذه الحقائق السَّاطعة النَّاصعة، يطلع كلَّ يوم مسؤول عربيٌّ ليعلن أنَّ بلده لن يقيم علاقات مع إسرائيل قبل إتمام مفاوضات السَّلام مع سوريا، على أساس أنَّه يدعم الموقف السوري، وكأنَّ إقامة العلاقات مع إسرائيل سنَّة نبويَّةٌ شريفةٌ، أو فرض عينٍ لا فرض كفايةٍ، أو عبادةٌ واجبةٌ لا تصحُّ طاعة الله من دونها!!! فوليُّ عهد البحرين (الشيخ) **سلمان بن حمد آل خليفة** قال في تصريح نشرته جريدة الحياة في الأول من شباط عام ٢٠٠٠م: «إذا كان الإسرائيليون صادقين في عملية السلام سنسير خطوتين كلما ساروا خطوة واحدة»[٢٣]!!! وفي السَّابع عشر من أيار ٢٠٠٠م أعلن الرئيس الجزائري **بوتفليقة** قائلاً: «لا علاقات جزائرية مع إسرائيل ما لم تنسحب من الجنوب والجولان»[٢٤].

ويتجاوز بعضهم ذَلكَ كلَّه فيعلن أنَّ بلده سيقيم العلاقات مع إسرائيل مهما كانت نتائج مفاوضات السَّلام، وكأنَّ قطع العلاقات مع إسرائيل كفرٌ صريح... وكأنَّ ما سبق من ادعاء مقاطعة إسرائيل ضرب من الفسق، أو الفجور، أو الزَّندقة، أو كلها مجتمعة!!!

فهل نلوم إسرائيل إذا ذبحت في فلسطين أبناءنا، وتوراتهم تقول لهم إنَّ قتل العرب عبادة واجبة؟؟!! لا أظنُّنا نستطيع ذَلكَ لأنَّنا سمحنا لإسرائيل أن تقتل العرب البعيدين عن إسرائيل، فكيف نحتج على تفعله ضمن ما يسمى إسرائيل؟

---

(٢٣) . إبراهيم خياط: **ولي عهد البحرين لـ الحياة: كل خطوة إسرائيلية نقابلها بخطوتين** . ضمن جريدة **الحياة** . لندن . العدد ١٣٤٧٥ . الثلاثاء ٢٦ شوال ١٤٢٠هـ الموافق لـ ١ شباط ٢٠٠٠م.

(٢٤) . انظر مثلا: جريدة **الديار** . بيروت . العدد ٤١٨٣ . الخميس ١٨ أيار ٢٠٠٠م.

هٰذا في حقيقة الأمر ما يبين لنا لماذا يأتي الاحتجاج على الهمجيَّة الإسرائيلية من الأجانب عنيفاً، فيما يأتي احتجاج العرب رخواً، (مقطوع الحيل)، كلُّه حياء وخجل... ونعود فنسأل بمرارة:

أليس عصرنا عصر الجنون؟!!

أو أليس مجنوناً هٰذا الزمان الذي يحتوينا؟

أم أنَّ العالم يسير وفق المنطق والعقل، وبعدنا الشاسع عن المنطق والعقل هو الذي يجعلنا نرى العالم مجنوناً، والزمان مجنوناً... ونريد أن نقنع أنفسنا والعالم أنَّ الجنون هو عينُ العقل، ولبُّ المنطق؟؟!!

دمشق في ٤/١/٢٠٠١م.

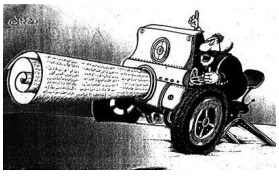

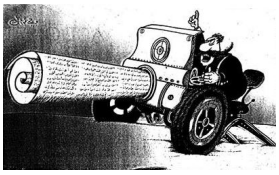

الفصل التاسع

الانتخابات الأمريكية

والرهان العربي الخادع للذات

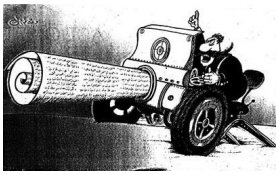

الحقيقة الأولى الَّتي نستطيع إقرارها بطمأنينة هي أنَّ العرب ينشغلون بالانتخابات الأمريكيَّة والانتخابات الإسرائيليَّة أكثر من انشغالهم بأيٍّ من الانتخابات العربيَّة. وهٰذا الانشغال العربي، في الأغلب الأعمِّ، يفوق انشغال الأمريكيين واليهود أنفسهم بانتخاباتهم. وفي هٰذا وحده ما يستحقُّ وقفة تأمُّل ومعالجة، ويصحُّ في الوقت ذاته أن يكون مدخلاً للحديث في هٰذا الموضوع، والإجابة عن أسئلته المطروحة.

إنَّ الأمر في حقيقته ليس محض اهتمامٍ إعلامي يزداد أو ينقص، وإنَّما هو رهاناتٌ سياسيَّةٌ تطغى على السَّاحة الإعلاميَّة. وللأسف فهي دائماً رهاناتٌ خاسرةٌ مهما كان شأن الفائز في الانتخابات، وهٰذا هو وجه المأساة الذي لم يستطع العرب أن يروه حتَّى الآن. ويمكن تبيُّن ذٰلكَ من خلال حقيقتين:

أولاهما تكمن في: ماذا يريد الأمريكيون من الانتخابات الأمريكيَّة؟

وثانيتهما تكمن في: ماذا يريد العرب من الانتخابات الأمريكيَّة؟

من البداهة بمكان أنَّ الأمريكيين: النَّاخبين عامَّة والحزبين الديمقراطي والجمهوري، كأيِّ بلدٍ ديمقراطيٍّ في العالم، بالمعنى الأكثر رواجاً للديمقراطيَّة، يتطلعون إلى مصلحة الولايات المتحدة؛ كلاًّ وأفراداً، على المستويين الدَّاخلي أولاً والخارجي ثانياً. والذي يستحقُّ الإيضاح هنا والانتباه إليه، وهٰذا ما أزعم أنَّ العرب لم يستطيعوا استيعابه حتَّى الآن، هو أنَّ العقلية

الأمريكيَّة عقليَّةٌ ذرائعيَّةٌ، منفتحةٌ على كلِّ ما يخدم مصالحها، قابلةٌ لتغيير الموقف بمرونة إذا اقتضت مصالحها ذلكَ، تقدِّم ما يخدم مصالحها وحسب على كلِّ شيء، بغضِّ النَّظر تماماً عن الأشخاص والأصول والانتماءات... ووفق هٰذه المعايير ذاتها تسير عجلة السِّياسة الأمريكيَّة. ولذلك لا فرق أبداً فيمن سيكون رئيساً للولايات المتحدة بَيْنَ يهوديٍّ ومسيحيٍّ ومسلمٍ وغير مؤمنٍ، وديمقراطيٍّ وجمهوريٍّ[٢٥]... لأنَّ المطلوب من الجميع هو تحقيق مصلحة المواطن الأمريكي، والمصلحة الأمريكيَّة. وبهٰذا المعنى لا فرق بَيْنَ الحزبين الديمقراطي والجمهوري في التَّعامل مع العرب لأنَّهما كلاهما لا ينظران إلى العرب إلا من زاوية المصالح الأمريكيَّة، والسِّياسة العليا للولايات المتحدة الأمريكيَّة، ولا يفترق العرب من وجهة النَّظر الأمريكيَّة، إلى حدٍّ جدٍّ بعيد، عن أيِّ دولةٍ أو أمَّةٍ أو كتلةٍ سياسيَّة على الأرض إذا اقتضت المصالح الأمريكية وقفةً جادةً مع هٰذه الأمة أو تلك أو وضعت المصالح الأمريكية على المحك... أي خلافاً لما نحاول أن نوهم أنفسنا به من أنَّ العرب هم مركز العناية والاهتمام والتَّخطيط الأمريكي؛ سلباً أو إيجاباً، ذلكَ أنَّ المصالح الأمريكيَّة في الوطن العربي وإن كان لها نوعٌ من الخصوصيَّة والتميُّز الذي تفرضه طبيعة الأمَّة والاستراتيجيا والثروات والموقع الجغراسي، فإنَّها ليست أكثر ولا أخطر من مصالحها في أوروبا أو آسيا أو حتَّى اليابان وحدها.

---

(٢٥) . في هذا السياق تجدر الإشارة إلَى أنَّ رئيساً أمريكاً واحداً فَقَطْ منذ استقلال الولايات المتحدة وحَتَّى هذه اللحظة كان من المذهب الكاثوليكي هو جون كندي الذي اغتيل في ولايته الرئاسية الأولى، وكل الرؤساء الآخرين هم من المذهب البروتستانتي، وإذا نجح جون كيري في الانتخابات الَّتي ستجري قريباً فسيكون الرئيس الثاني للولايات المتحدة من المذهب الكاثوليكي.

ومما يؤكِّد هٰذه الحقيقة أنَّ المصالح هي الَّتي تحكم انتخابات الولايات المتحدة الأمريكيَّة وسياساتها أنَّها كادت أن تغيِّر سياستها تجاه العرب وإسرائيل ثلاث مرَّات على الأقل لأنَّها شعرت بأنَّ مصالحها في المنطقة العربيَّة معرَّضة للخطر بسبب سياستها المناصرة للصهيونيَّة.

الأولى: في التاسع من شباط ١٩٤٢م، كما يشير **هلموت مايشر**: كانت هناك أسباب تدعو إلى إدخال الكونجرس في المسألة النِّفطيَّة، بسبب قرار الكونجرس الدَّاعم للصهيونية، الأمر الذي أثار قدراً كبيراً من الاهتمام والتَّحفظ بَيْنَ رجال النِّفط داخل الحكومة وخارجها خوفاً على المصالح النفطيَّة الأمريكيَّة في المنطقة العربيَّة(٢٦).

والمرَّة الثانية كانت عندما أعرب وزير الدِّفاع الأمريكي **جيمس فورستال** في ١٩٤٨/١/١٩م عن تخوفه الشَّديد من أنَّ تطرف الولايات المتحدة في الانحياز إلى اليهود سيؤدي إلى التَّأثير في مصالح بلاده النفطيَّة في الوطن العربي، وأدى هٰذا التَّخوف إلى تكليف المندوب الأمريكي السيناتور **وارين أوستن** بسحب الولايات المتحدة تأييدها لمشروع تقسيم فلسطين في ١٩٤٨/٣/١٩م(٢٧).

والمرَّة الثالثة كانت في حرب رمضان/تشرين ١٩٧٣م عندما استخدم النِّفط سلاحاً في المعركة، إذ تعرَّضت الحكومة لضغوطاتٍ كبيرةٍ من أجل تعديل مواقفها تجاه القضيَّة الفلسطينية والعرب وإسرائيل...

---

(٢٦) . هلموت مايشر: **خط أنابيب عبر الجزيرة العربيَّة . تابلاين TAP** . ترجمة د. خيريَّة قاسميَّة . ضمن مجلة **الكاتب الفلسطيني** . العدد ٢٣ . ١٩٩١م . ص٣٠.

(٢٧) . يوسف الخطيب: **المذكرة الفلسطينيَّة** . ١٩٧٠م.

ولكنَّ المخجل، المضحك المبكي.. أنَّ العرب أنفسهم بالدَّرجة الأولى هم الذين يرفضون أن توضع مصالحهم بعين النَّظر الأمريكيَّة، ويفرضون على الولايات المتحدة، ودول العالم، أن تعاملهم بالازدراء والتَّهميش... إذ كلَّما بدت ملامح تخوُّفٍ أمريكيٍّ من تعرُّض المصالح الأمريكيَّة للخطر في المنطقة العربيَّة تنطَّع الحكام العرب لطمأنتهم وتأكيد أنَّ حرصهم على المصالح الأمريكيَّة أكثر من حرصهم على المصالح العربيَّة، والكرامة العربية، والدماء العربية... أو بالمعنى المهذَّب عدم الخلط بَيْنَ السِّياسة والاقتصاد، على الرُّغم من الإهانات الشَّديدة التي تعرض لها العرب وحكامهم في هٰذه الأزمات، من مثل ما جاء في مجلة الأخبار الأمريكيَّة في حزيران ١٩٤٨م إذ قالت: «إنَّ الحكَّام العرب الذين يحصلون على ٢٣ سنتاً للبرميل الواحد، يمنعهم اهتمامهم الشَّديد بعائداتهم النفطيَّة من إيقاف الإنتاج في الآبار انتقاماً من دعم الولايات المتحدة لإسرائيل»[٢٨]. وكذٰلكَ صراخ **حاييم وايزمن** في وجه المسؤولين الأمريكيين لردعهم عن مخاوفهم: «**إن قوَّة العرب خرافة لا صحَّة لها**»[٢٩].

وهٰذا ما يذكرنا للأسف بخطاب **هتلر** الشَّهير عن اليهود (الثقلاء) في نورمبرج ومشكلة السوديت إذ قال: «لن نسمح أن تصبح مشكلة السوديت فلسطين ثانيةً، يجوز ألا يكون هناك من يدافع عن عرب فلسطين، أمَّا الألمان السوديت فليسوا كذٰلكَ»[٣٠].

---

(٢٨) . عيسى درويش: **البترول وأهميته في معركة الصمود والتصدي** . مجلة **المناضل** . العدد ١١٧ . كانون الثاني ١٩٧٩م . ص٩٦.

(٢٩) . يوسف الخطيب: **المذكرة الفلسطينيَّة** . ١٩٧٠م.

(٣٠) . أكرم زعيتر: **الحركة الوطنية الفلسطينيَّة؛ يوميات أكرم زعيتر** . مؤسسة الدراسات الفلسطينية . بيروت . ١٩٨٠م . ص٤٤٨ . ٤٤٩.

على هٰذا الأساس أصبحت المعادلة مقلوبة، وأصبح السُّؤال الذي يجب أن يطرح الآن هو: كيف يمكن للعرب أن يمارسوا أيَّ تأثيرٍ في السِّياسة الأمريكيَّة، وهم على ما هم عليه من استعداء للذات، واستقواء للآخر على الأنا؟؟!! أقول في السِّياسة لا في الانتخابات، لأنَّ الانتخابات لا تقدِّم ولا تؤخِّر من حيث المبدأ... ومن ثمَّ فإنَّ الرِّهان على أيٍّ من المرشحين رهانٌ بلا معنى بالنسبة لنا، والمؤسف هنا أيضاً أنَّ العرب على الرُّغم من تعرضهم للخذلان في كلِّ الرهانات الانتخابية الأمريكيَّة السَّابقة فإنَّهم ما زالوا مصرِّين على التعرُّض للخذلان في رهاناتٍ جديدةٍ!!

إنَّ ما صحَّ على التَّأثير من الخارج، أي التَّأثير العربي من خارج الولايات المتحدة، يصحُّ على التَّأثير من الداخل، أي تأثير الجاليات العربيَّة الموجودة في الولايات المتحدة، لأسباب كثيرةٍ لا لسببٍ واحدٍ:

ففي الدرجة الأولى والأكثر أهميَّة نجد العلاقة الجدليَّة المنطقية أو الطبيعيَّة بَيْنَ الدَّاخل والخارج العربيين، بمعنى أنَّ عرب الخارج؛ المهاجرين/ المغتربين يمثلون عرب العرب الداخل بكلِّ معاني التَّمثيل غير المحمودة، فانقسامات عرب أمريكا وغيرها من بلاد المهجر مكافئة تماماً لانقسات عرب الوطن؛ الدينية والطائفيَّة والسياسية والقطريَّة، ويصل هٰذا الانقسام إلى درجة تكاد لا تصدق من ردود الأفعال والأصداء، فأيُّ توتُّرٍ أو تقارب بَيْنَ قطرين، طائفتين، حزبين... يجد صداه المباشر في بلاد المهجر، وكأن المهاجرين ليسوا مهاجرين أبداً... هٰذا طيلة ما امتد من الوجود العربي في أمريكا وبلاد المهجر. ولذلك كان من المتعذَّر على الجاليات لا الجالية العربية أن تمارس أيَّ دورٍ فاعلٍ أو شبه فاعلٍ في الولايات المتحدة أو غيرها.

وفـي الدرجـة الثانيـة نجـد الصُّـورة اللامعقولـة لظهـور الخـارج العـربيِّ وفعلـه، وهٰـذا الظهـور مـرتبطٌ بالمسـتوى الأول مـن الأسـباب، ولكنَّـه علـى الـرَّغْمِ مـن ذٰلـكَ يظـلُّ غـير منطقـيٍّ ومتمنـع علـى الانـدراج تحـت معطـف المعقوليَّـة، لأنَّ العوامـل الـتي دفعـت الجميـع إلى الهجـرة والاغـتراب إن لم تكـن هـي ذاتهـا فإنَّهـا علـى الأقـل متقاربـةٌ ومـن طينـةٍ واحـدةٍ، الأمـر الـذي يقتضـي بالضَّـرورة المنطقيَّـة أن تسـتقطبهم في بـلاد المهجـر علـى الأقـل لحمـة واحـدة. وهٰـذا مـا كـان لمهـاجري الأمـم الأخـرى: الصـين، اليابـان، ألمانيـا... ولكـنَّ العـرب عجـزوا عـن الالتفـاف حـول المحـاور الـتي تجمعهـم، لأنَّهـم فضـلَّوا نقـل خلافـتهم ونقـاط ضـعفهم الـتي هجـرتهم مـن بلادهـم إلى بـلاد المهجـر، فظلُّـوا لـذٰلك علـى الهـامش بمحـض إرادتهـم، فيمـا اسـتطاع غـيرهم أن يشـكِّل جماعـات ضـغط تفعـل بقـدر مـا تطمـح إليـه وتسـمح الظـروف بـه... وبهٰـذا المعـنى أصـبح العـرب في أمريكـا هـم الوحيـدون الـذين يعيشـون مـن غـير غايـةٍ أو هـدفٍ إلا العمـل مـن أجـل العـيش!! وتحقيـق مـا أمكـن مـن مجـدٍ شخصـيٍّ إن أمكـن، وعـذراً إن قلـت: حـتَّى ولـو كـان علـى حسـاب الـوطن الأمِّ في بعض الأحيان!!!

ويضاف إلى ذٰلكَ، في الدرجة الثالثة، محدودية تفكير عرب المهجر فيما يخصُّ الفاعليَّة والضَّغط، إذ إنَّ سحابة القرن على أقل تقدير قد انقضت على الوجود العربي في أمريكا، وطيلة هٰذا الوجود ـ اللهم إلا في السنوات العشر الأخيرة على الأكثر ـ لم يتعامل العرب في أمريكا مع أمريكا إلا بوصفهم ضيوفاً، زائرين مؤقتين، غرباء، يستحصلون حقوقهم بالحياء والخجل، ولذٰلك كان من الصَّعب بل من المتعذَّر عليهم أن يشعروا أنَّهم مواطنين أمريكيين لهم كامل الحقوق. ولٰكنَّ هذا

لا يعفيهم من المسؤوليَّة أبداً لأنَّ المنطق يفرض عليهم أن يمارسوا أيَّ دور يمكن لهم أن يمارسوه حتَّى وهم ضيوف، شأن في ذلكَ شأن ضيوف الأمم الأخرى التي لم تمنعها رغبتها في العودة عن ممارسة ما أمكن من الأدوار لحماية خصوصية وجودهم على الأقل.

وفي الدرجة الرابعة نجد تضافر الخصوم والأعداء على شلِّ الدَّور العربي وجعله من دون أيِّ فاعليَّةٍ. وأعني بهؤلاء الخصوم والأعداء الصهيونيَّة العالميَّة تحديداً ومن لفَّ لفيفها، وليس الشَّعب الأمريكي من هؤلاء بصورة من الصور، بل الحقيقة الأكثر إدهاشاً أنَّ الشَّعب الأمريكي في حقيقته يكره الصهيونية، ولكنَّه على الرَّغْمِ من ذلكَ يردِّد ادعاءاتها ومزاعمها، ولا سيَّما فيما يخص علاقتها مع العرب، على أنَّها حقائق غير قابلةٍ للجدال. والسَّبب في ذلكَ أنَّ المعلومات المتوافرة لديه والمفروضة عليه عبر مختلف وسائل الإعلام هي المعلومات الصهيونية فقط، الأمر الذي يحيل هٰذه المعلومات على زيفها إلى حقائق عند الشَّعب الأمريكي، وهٰذا أمر يطول الحديث فيه، وكثيرة هي أمثلته، وأدلته.

وفي الدرجة الخامسة نجد سرعة يأس الفاعل العربي وانهزاميَّته واستسلامه للأمر الواقع على الرُّغم من عدائيَّة هٰذا الواقع له. وهٰذا المستوى من الأسباب مرتبطٌ بالمستويات السَّابقة ومنبثق عنها، ذلكَ أنَّ أيَّ محاولةٍ لتحسين صورة العربي في الولايات المتحدة، وكلَّ محاولة للدِّفاع عن الحقوق العربية... تصدم دائماً بالحركة الصهيونية ومنظماتها، ولأنَّ هٰذه المحاولات فرديَّةٌ في الغالب، وغيرُ منظَّمةٍ، ولا مدعومةٍ من أيِّ حكومة عربيَّةٍ دعماً صادقاً، ومتصادمةٍ في كثيرٍ من الأحيان مع المحاولات العربيَّة الأخرى في أمريكا، ولا تجد أيَّ تآزرٍ عربيٍّ لا من الداخل ولا من الخارج... فقد باءت هٰذه المحاولات جميعها بالإخفاق الذريع، وتكرار الإخفاق

أولد شعوراً باليأس والإحباط، وظلَّت المحاولات معظمها محكومةً بسرعة الاستسلام والانهزاميَّة، والإقرار بأنَّه من المستحيل تغيير الواقع الأمريكي المعادي للعرب، على الرَّغْمِ من خطأ هٰذا الحكم، لأنَّ الواقع يشهد أنَّ أيَّ مناقشةٍ منطقيَّةٍ واعيةٍ تستطيع تغيير الرَّأي العام الأمريكي، والأدلَّة على ذَلكَ أيضاً أكثر من الكثيرة، يكفينا أن نذكر منها المظاهرات التي بدأت في الخامس من آب ٢٠٠٠م ولأيام متوالية ضدَّ السياسة الأمريكية تجاه العراق، وكذَلكَ الاحتجاجات الأمريكيَّة على الهمجية الإسرائيليَّة في مجزرة قانا، والاحتجاجات على الحرب الأمريكيَّة ضدَّ فيتنام... وغير ذَلكَ الكثير.

قيل للمسمار كيف تدخل الجدار على قسوته، قال: من كثرة الدقِّ على رأسي!! لو أنَّ عرب أمريكا، لا الحكومات العربية، فهموا هٰذه الحقيقة، لكان من الممكن أن يفعلوا شيئاً. ولو أنَّهم فهموا أنَّ نجاحاً من غير تضحيات لا يمكن أن يكون لرُبَّما أيضاً استطاعوا أن يفعلوا شيئاً. ولكنَّهُم لم يفعلوا، لأنَّه في آخر درجة من مستويات الأسباب يأتي أنَّها تتضافر كلُّها مع بعضها بعضاً لتمارس دوراً تكريسيًّا لانعدام الفاعليَّة العربية في السياسة الأمريكيَّة والانتخابات الأمريكيَّة.

أمَّا الحقيقة الثانية التي أردناها منجليةً عن: ماذا يريد العرب من الانتخابات الأمريكيَّة؟ فقد باتت شبه واضحةس، ففي حين أنَّ الصهيونية تمارس مختلف أنواع الضغوط والابتزاز على المرشحين للرئاسة الأمريكيَّة كي يقدِّموا المزيد والمزيد من الدَّعم والتَّعزيز للكيان الصهيوني، فإنَّ العرب يكتفون بالمراهنة، والتكهن، والترقب، والتَّسابق لكسب رضى الفائز في الانتخابات، فيما يستمر اليهود بممارسة الضغوط على الفائز لتحقيق المزيد من المكاسب.

والمشكلة الأكثر خطورةً، وهي ليست واحدةً، هي أنَّ الشَّارع العربيَّ في الوطن محرومٌ من ممارسة أيِّ دور ضاغط على الولايات المتحدة أو حتَّى إسرائيل؛ عن طريق التَّظاهر أو الاحتجاج أو الاعتصام أو رُبَّما التَّعبير عن الرأي. والحكام العرب في الغالبية السَّاحقة من مفاوضاتهم مع الحكومات الأمريكيَّة لا يطرحون إلا المخاوف الشخصيَّة على السُّلطة من الشَّعب أو من الأشقاء العرب.. وما دار في فلك هٰذه المخاوف، ولتظلَّ القضايا الجوهريَّة والمصيرية للشعب والأمَّة بعيدة حتَّى عن هوامش الحوار والتفاوض. ويرتبط بذلك أنَّ الحكام العرب يريدون من المرشحين الأمريكيين والحكومات الأمريكية أن تتفهم أبعاد القضية العربيَّة من دون أن يشرح العرب أبعاد هٰذه القضية، وأن يدافع الأمريكيون عن القضايا العربية من دون أن يدافع العرب عن قضاياهم. بل من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء توضيح أبعاد قضاياهم للحكومة الأمريكيَّة أو الشعب الأمريكي أو كليهما... والأمثلة على ذٰلكَ أيضاً كثيرة نذكر منها مثالين متقابلين:

أولاً: أورد **محمد جميل بيهم** مثالاً طريفاً يقول فيه: «لعَلَّ الولايات المتحدة التي كانت مطوَّقة بشريعة **مونرو** أشدُّ الأمم المتمدِّنة انصرافاً عن الإلمام بشؤون العالم الخارجيَّة، وخصوصاً ما كان منها في الشرق. وقد نوَّه بذلك مستر **ددج** رئيس الجامعة الأمريكيَّة ببيروت عندما وجَّهنا عتاباً للأمَّة الأمريكيَّة على تلك المذكرة التي رفعها بعض الساسة في غزَّة عام ١٩٤٢م وطلبوا فيها فتح أبواب فلسطين للهجرة... نوَّه بذٰلكَ في معرض الدفاع عن قومه فقال: **أنتم المقصرون، لأنَّكم لا توفون التَّعريف الكافي بقضيتكم، وهم في أمريكا لا يعرفون عن أحوال فلسطين وغيرها من بلاد الشرق الأدنى أكثر مما تعرفون أنتم عن بلاد**

التايلاند»[٣١]. وفي هٰذا الإطار ذاته رأى **ودسورث** وزير الولايات المتحدة الأمريكيَّة المفوض في سوريا ولبنان (قبل استقلاليهما) أنَّ أوَّل أسباب نجاح اليهود في أمريكا، بمعنى التأثير في السياسة الأمريكيَّة، هو **أنَّ العرب ارتكبوا أشدَّ تقصير في تبيان وجهة نظرهم**، بينما اليهود صوروا قضيتهم تصويراً مؤثِّراً. فيما وقفت أسطورة المحرقة ونبوءة العودة في المستوى الثاني والثالث[٣٢]. وعلى الرُّغم من هذا التَّوضيح الذي يفقأ العين بوضوحه لم يقم العرب بأيِّ خطوةٍ لشرح أبعاد قضيتهم، وحقوقهم، ولذٰلك لم يجد مجلس النواب الأمريكي ما يمنعه أو يحول دون موافقته «في ١٢/٢/ ١٩٤٥م على قرار مجلس الشيوخ بفتح باب الهجرة حتَّى أقصى ما تحتمله فلسطين..»[٣٣].

ثانياً: إنَّ ما فعله الحكَّام العرب لا يفترق عن الزيارة المفاجئة لأمير الكويت **صباح الأحمد الصباح** التي أحرج فيها الرئيس الأمريكي (**ترومان أو روزفلت** فيما أذكر) لأنَّه لم يكن ليتوقع الموضوع الذي جاء من أجله، فطلب من مستشاره أن يعد له ملفاً سريعاً عن القضايا التي يحتمل أن يطرحها للنقاش فكانت هٰذه القضايا هي بالضرورة المنطقية ما يشغل بال العرب: القضية الفلسطينية، الاستقلال، ولا شيء آخر. ولٰكنَّ الصاعقة المضحكة كانت عندما عرض الشيخ هواجسه من احتمال اعتداء عراقي على الكويت، وطلبه الحماية الأمريكيَّة!!!

وهٰذا ما سار عليه الحكام العرب حتَّى اللحظة الراهنة فيما أكاد أجزم، حتَّى نشرت صحيفة الاتحاد الظبيانية في أحد أعداد شهر تموز ٢٠٠٠م مشهداً

(٣١) . محمد جميل بيهم: **فلسطين أندلس الشرق**. نشر المؤلف. ١٩٤٦م. ص١٥٧.

(٣٢) . انظر: محمد جميل بيهم: المصدر السابق. ص١٦٥.

(٣٣) . محمد جميل بيهم: المصدر السابق. ص١٨٢.

كاريكاتيريًّا يصور حاكماً عربيًّا يخرج من البيت الأبيض وهو يقول لحاكم عربيٍّ آخر في طريقه إلى الدخول: (الرئيس انبسط جدًّا من شرحي لأبعاد الصراع العربي الإسرائيلي.. وقال لي: يا ريت كل ما تكون فاضي تيجي تشرح لي تاني..!!).

إنَّ الواقع العربي بكلِّ معطياته، وما اتصل به حَتَّى ولو كان في البؤرة الملتهبة من الأرض، يثير من الشجون ما لا يكنُّ ولا يهدأ. ولا يمكن للعرب أن يمارسوا أي تأثير في أي بقعة من بقاع الأرض ما داموا على هٰذا الحال من التشرذم واستعداء الذات واستقواء الآخر على الأنا. فإذا ما تجاوزا هٰذه الآفات الثلاث لم يعودوا بحاجةٍ إلى التَّفكير في الانتخابات الأمريكيَّة وانتظار ما تتصدق به علينا، لأنَّهم سيكونون قادرين على فرض مصالحهم من مواقعهم لا من مواقع الآخرين، ومن يفرض مصالحه من موقعه فهو خليق أو قادر على فرض مصالحه من مواقع الآخرين أيضاً.

دمشق في ٢٠٠٠/٩/٢٠م

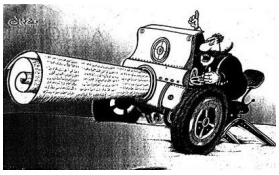

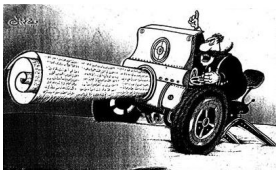

الفصل العاشر

قمة بيروت

من حضيض اليأس إلى قاع التشاؤم

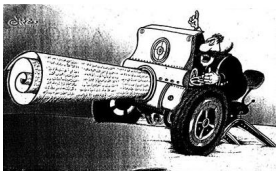

أطرف ما يميِّز القمم العربيَّة منذ تأسيس الجامعة العربيَّة وحَتَّى آخر قمة هو أنَّها دائماً تتجاوز بنتائجها أسوأ التَّوقعات بما لم يكن متوقعاً. والأغرب من ذلك أَنَّهُ على الرَّغْمِ من أنَّ المعطيات هي ذاتها تماماً فإن الآمال تثب قبلَ كلِّ قمة إلى الصَّف الأول من العناوين، والتَّفاؤل ينبعث، والفرحة تكبر... وكأنَّنا أمام ليلة دخلة الزعماء العرب، وكأَنَّ هٰذه القمة هي الأولى من نوعها ولم تسبق بالكثير من خيبات الأمل بمثيلاتها!!

الحقيقة أنَّ سبب هٰذا التفاؤل والفرح ليس هو الثقة في القمة، ولا هو توقع أن تنجز شيئاً... وإنَّما هو اليأس والإحباط الذي وصل إلى الذُّروة، وذروة اليأس والإحباط تشبه لحظة الغرق الَّتي يتمنى المرء فيها أن يرى قشَّةً يتمسك بها وهو على يقين بأنَّ القشَّة لن تنجيه!!

المؤسف أنَّ هٰذا الاستهلال ليس نابعاً من تشاؤم، أو نفسيَّةٍ متشائمةٍ أبداً، وإنَّما هو تعبيرٌ صميميٌّ عن الواقع من دون أيِّ لمسةٍ إضافيَّة، بل رُبَّما تكون أقلَّ مأساويَّةً من الواقع في حقيقته. ذٰلكَ أنَّ الآمال الَّتي تنبعث قبل كلِّ قمة، والأحلام الَّتي تعلَّق على كاهل الحكَّام العرب في هٰذه القمم... ليست آمالاً ولا أحلاماً بالمعنى الحرفيِّ وإنَّما هي في حقيقة الأمر نداءات استغاثةٍ ورجاءات وتوسلات ترفعها الجماهير إلى الحكام العرب مع يقين الجماهير بأنَّ القشَّة الَّتي تقصم ظهر البعير لا يمكن أن تنقذ غريقاً.

هٰذا هو واقع الحال. إنَّ انبعاث التَّفاؤل هو القشة ذات الفعل المزدوج، فهم إن لم يتفاؤلوا وأبقوا اليأس مهيمناً عليهم فإنَّ ظهرهم سينقصم، ولٰكنَّ هٰذا التفاؤل لن ينقذهم من الغرق!!

وعلى الرَّغْمِ من كلِّ ما يدعو إلى التَّفاؤل على كثرته، وعلى الرَّغْمِ من ضرورة التفاؤل وأهميته، وعلى الرَّغْمِ مما يمتلكه الوطن العربيُّ من إمكانات تعزِّز التفاؤل وتسانده فإننا لن نستطيع أن نتفاءل أبداً بما ستصل إليه قمة بيروت العربيَّة القادمة من نتائج، والذي يؤكِّد كلامنا هٰذا حقائق كثيرةٌ جدًّا تكاد تندُّ عن الحصر. ولٰكن ما لنا ولحصر أو عدها، حسبنا منها أنَّ كلَّ واحدٍ منها يكفي لإحباط أيِّ تفاؤلٍ بهٰذه القمة القادمة، أو أي قمة أُخْرَى إلى أن يشاء الله.

أول هٰذه الأدلَّة أو الأسباب أنَّ تاريخ القمم العربية منذ تأسيس الجامعة وحَتَّى الآن تاريخٌ حافلٌ بالإحباط والإخفاق، ويصحُّ القول تماماً إنَّ الزعماء العرب خلال قمم الجامعة العربية لم يتَّفقوا أبداً على أمر واحدٍ فيه مصلحة الأمَّة العربية، ولم يتخذوا سوى قرار ملزمٍ واحدٍ هو ضرب العراق، ولم يجمعوا إلا على أمرٍ واحدٍ هو الاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها.

قَدْ يعترض الكثيرون من باب الجدل لا القناعة بأنَّ سجلَّ الجامعة العربيَّة مليءٌ بالقرارات الَّتي اتخذتها القمم العربيَّة، وكلُّها تصبُّ في مصلحة الأمَّة العربيَّة.

إن وجد مثل هٰذا الاعتراض فهو نكتةٌ بكلِّ تأكيد، لأنَّهُ ليس من المعقول أن تعقد القمم العربية بقصد اتِّخاذ قرارات ضدَّ مصلحة الأمة العربيَّة على أيِّ مستوى من المستويات، ولٰكنَّ الأغرب من الغرابة أنَّ

اللامعقول هٰذا ليس بعيداً عن واقع القمم العربية لأنَّها لم تخل من قرارات ضدَّ مصالح الأمَّة العربيَّة على أكثر من مستوى وفي أكثر من مرَّة. وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ هٰذا الاعتراض ذاته، وهو صحيحٌ، إنَّما هو دليلٌ على عدم جدوى القمم العربيَّة لأنَّ واقع الحال يشهد بأنَّ مئات القرارات قَدْ اتخذت خلال القمم العربية وبقيت هٰذه القرارات حبراً على ورقٍ، وقد بقيت حبراً على ورقٍ لأنَّها لم تكن في الأصل إلا لذرِّ الرَّماد في العيون.

الحقيقة الَّتي نرفض الاقتناع بها، أو رؤيتها أصلاً هي التَّناقض الصَّارخ الذي فرضه الزعماء العرب على الواقع العربيِّ منذ بدء الاستقلالات وحَتَّى الآن. فكلُّ واحدٍ من الحكام العرب يصدِّرُ نفسه لشعبه وللشعب العربيِّ على أنَّهُ القومي الأمثل، والعروبي الأصيل، والوحدوي الصادق. وأنَّ عاصمته هي قلب العروبة، وموئل الكفاح، ونبراس الوحدة... ولكنَّهُ في حقيقة الأمر لا همَّ له إلا تكريس نفسه حاكماً لا يزول. ولذلك عندما يجتمع الحكَّام العرب لا يتَّفقون أبداً إلا على ما يعزز القطريَّة ويقوِّض أسس الوحدة والتكامل والوفاق، وليصدق عليهم بذلكَ حكمنا السابق عليهم بأنهم: «قوميون بالمفرق، أعداء للقومية بالجملة»، والذي يؤكِّد هٰذه الحقيقة ويعززها ما كتبه الرئيس الأمريكي الأسبق **جيمي كارتر** في مذكراته إذ قال: «**من غريب ما شاهدت أنَّ الحكام العرب عندما يلتقونني مجتمعين يطلبون مني مساندتهم في القضية الفلسطينية، وعندما يلتقونني منفردين يطلبون مني التوسط لهم مع أبناء عمومتهم اليهود**». والحكاية ذاتها تتكرر اليوم من دون أيِّ إضافةٍ، فقد أعلن نائب الرئيس الأمريكي **ديك تشيني** «أنَّ

الزعماء العرب الذين التقاهم كلُّهم يؤيدون الولايات المتحدة الأمريكية في ضرب العرق، وأن هؤلاء الزعماء يبدون مخاوفهم وقلقهم من سعي العرق إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل». هٰذا في الوقت الذي تتصاعد فيه وتائر الرفض العالمي لضرب العراق انطلاقاً من الأشخاص مروراً بالمنظمات وصولاً إلى الحكومات. ولذلك علَّقت النيوزويك يوم الخميس ٢٠٠٢/٣/٢١م قائلة: «إنَّ الزعماء العرب يرفضون ضرب العراق علناً ويؤيدونه سرًّا».

هٰذه الحقيقة تكشف لنا بجلاء عن سبب إخفاق القمم العربية السابقة، وإخفاق ما سيأتي من القمم، في توحيد وجهات النَّظر العربيَّة، وتحقيق الوفاق والتلاقي. ذٰلكَ أنَّ تحقُّق أيِّ مصلحةٍ عربيَّةٍ عليا يعني من وجهة نظر الحكام انتقاصاً من السيادة القطرية، والانتقاص من السيادة القطرية يعني انتقاصاً من سيادة الحاكم. ولذٰلك كان ما سبق من قرارات القمم العربية لمحض ذر الرماد في العيون وليس لوضعها موضع التنفيذ.

بل الأكثر خطورة من ذٰلكَ كلِّه هو أنَّ قرارات القمم العربية تصاغ في وكالة المخابرات الأمريكية، أو في الخارجية الأمريكية، وليس على الحكام العرب إلا أن يوقعوا عليها ويقولوا: «سمعنا وأطعنا، غفرانك أمريكا وإليك المصير». وهٰذا ما كشف عنه العقيد **معمر القذافي** قبل قمة القاهرة الأخيرة، وعلَّق ساخراً وليت السخرية تكفي: «ويا ليتهم ترجموه إلى العربية، لَقَد أرسلوه باللغة الإنجليزية».

لَقَـد وصـل الأمـر بأمريكـا أن تسـتخفَّ بالحكـام العـرب إلى درجـة أنَّهـا لم تكلـف نفسـها عنـاء ترجمـة البيـان الختـامي إلى العربيـة الـذي سـيوقعه هـؤلاء الحكام... وستحاسبهم بشدَّة إن كان ثَمَّةَ أي خطأ في الترجمة!!!

ولذلك فإنَّ قمَّة بيروت القادمة لن تكون أحسن من مثيلاتها السَّابقة، إذ لم يتغير شيءٌ في المعطيات أو المقدمات الَّتي يفترض فيها أن تؤدِّي إلى نتائج جديدةٍ. وقد كان أحسن **إينشتين** إذ قال: «من الغباء أن نتوقع نتائج جديدة من المقدمات القديمة ذاتها». فهل نعتب على من قال عن هٰذه القمةإنَّها غمَّة وليست غمامة، وقمامة وليست قمة.

دمشق في ٢٠٠٢/٢/١١م

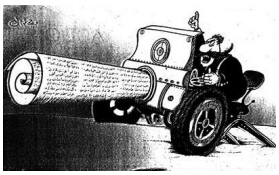

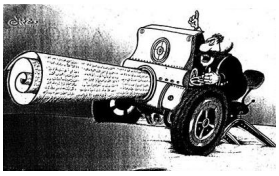

الفصل الحادي عشر

المنطق ينتصر للقمة العربية

أُمَّةٌ أَجمعَ حُكَّامُها عَلى جَلد الذَّاتِ فَتَوافَقَتْ نَتائِجُ قِمَمِهم

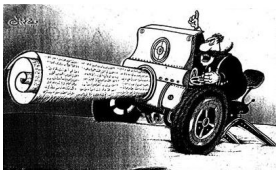

بعد لأيٍ وجهدٍ، و(تبويس) لحى، ورجاءٍ وتضرُّعٍ وبكاءٍ... خَلصت الدول العربية إِلَى الموافقة بل السَّماح بعقد القمَّة العربيَّة في مطلع آذار القادم. ولٰكن على الرَّغْمِ من الوصول لهٰذه النتيجة الَّتي تتفضل بالسَّماح بعقد القمة فإنَّ هٰذا التَّفضُّل ظلَّ مشروطاً بخلافات لها بدايةٌ ما لها نهايةٌ؛ فمن اعتذار عن المشاركة، إِلَى ضآلة مستوى التَّمثيل، إِلَى الخطوط الحمراء والسَّوداء والرمادية والصَّفراء... لتغدو هٰذه القمة من قبل أن تعقد قمَّة اللانتيجة، وقمَّة اللاقرار.

أن تعجز القمَّة العربيَّة عن القرار أو الفعل أو النَّتيجة أو كلها معهاً أمرٌ لم يعد مثار دهشةٍ على الإطلاق، لأنَّ القمم العربيَّة السَّابقة على الرَّغْمِ من تحقيقها الإجماع أو شبه الإجماع الدَّائم على انعقادها لم تكن قطُّ عند أدنى حدود المسؤولية أو المطلوب!! فكيف إذا كانت القمة قائمةً أصلاً على هٰذا الشَّرخ الكبير في الاشتراطات والاختلافات والامتناعات والاحتجاجات؟؟!

بعد إخفاق الدَّعوة إِلَى قمَّةٍ استثنائية لبحث الأزمة العراقيَّة والتهديدات الأمريكيَّة لحجج رُبَّما لا تصمد أمام أيِّ تشريحٍ نقديٍّ سطحيٍّ أو معمَّقٍ، منها أنَّ القمة الدورية قريبةٌ ولا حاجة للاستعجال، يفترض أنَّ موجبات القمَّة الاستثنائيَّة قَدْ علقت على كاهل القمَّة الدَّورية إِلَى جانب مهامها الدوريَّة الاعتياديَّة. ورُبَّما حَتَّى تحقق القمَّة الدوريَّة شيئاً مما كان مطلوباً منها في القمة الاستثنائية المجهضة تَمَّت الدعوة إِلَى قمَّةٍ مبكِّرةٍ.

هنا بدأت أولى المشكلات الَّتي تمثلت باحتجاج بعض الدُّول على هٰذا التَّقديم أيضاً بذرائع لا يمكن أن تصمد لحظةً أمام أيِّ تحليلٍ.

كان من الممكن أن يمرَّ هٰذا الاحتجاج أَو الاعتراض من دون أيِّ تساؤلٍ أو شكوكٍ أَو علامات استفهام، ولٰكنَّ الذي قلب الموازيين هو الطَّلب الذي تقدَّمت به الحكومة العراقيَّة لتأجيل القمة إِلَى ما بعد تقديم فريق المفتشين تقريرهم إِلَى الأمم المتحدة. فما إن تَمَّ تقديم هٰذا الطَّلب/ الاقتراح حَتَّى انقلبت الموازيين من جديدٍ، وانعكست المواقف، فالدول الَّتي اعترضت على تقديم القمَّة صارت تطالب بتثبيتها، أو بمعنى آخر رفض الاقتراح العراقي، والدول الَّتي أيدت التَّقديم أيَّدت التَّأخير، أو بمعنى آخر أيدت الاقتراح العراقي، أمَّا مصر فقد تصرَّفت في كلِّ ذٰلكَ وكأنَّها هي وحدها القمة العربيَّة، وهي وحدها الأمَّة العربيَّة؛ فهي الَّتي ألغت، وهي دعت، وهي الَّتي قدمت... ولم تكترث بمن وافق أَو احتجَّ أَو اعترض إِلَى درجة أوحت بأَنَّها يمكن أن تعقد القمة ولو كانت وحدها فيها.

لن نقوِّم الموقف الفردية للحكام العرب، وهي بالضَّرورة مواقف حكوماتهم ومندوبيهم ومسؤوليهم، وكلُّها على درجة من الوضوح الفاضح الَّتي يبدو معها أيُّ شرحٍ أو تحليلٍ نافلةً لا لزوم لها ولا ضرورة.

إنَّ ما يستحقُّ الوقوف عنده هنا هو ظاهرةٌ تستعصي على الفهم، ظاهرة تصفع الضمير بكعب حذاءٍ عتيقٍ، ظاهرة تحير الحليم.

منذ أكثر من عشر سنوات، عندما اجتاحت القوات العراقيَّة الكويت وليس من شكٍّ في خطأ هٰذه الخطوة، تداعى العرب للقمَّة بإيحاءٍ أمريكيٍّ أو غيره، فتسارعوا تسارع الجياع على قصعة الأكل، وكانوا في القاهرة في بدء التشاور. كان العنوان حينها ردع العراق، والمضمون تقديم التسويغ للولايات المتحدة بضرب

العراق، وقد علم الجميع بذلكَ، وعلى علمهم بأنهم ذاهبون للسماح بضرب العراق لا محض إخراجه من الكويت فقد تسارعوا إِلَى الموافقة والإقرار من قبل الاجتماع.

ذَلكَ التسارع حينها، وإعطاء الولايات المتحدة المسوغ لتصفية العراق وسحق قواه كان صدمةً للدول الغربيَّة قبل الشُّعوب العربيَّة، خاصَّةً وأنَّ المخطَّط الأمريكي حينها لدخول المنطقة والسيطرة عليها كان واضحاً لهم على الأقل، ولم يكن خافياً علينا على أيِّ حال. أيًّا كان فإنَّ من الواضح أنَّ غرض الولايات المتحدة حينها ليس إعادة العرش الكويتي وإنَّما الوجود الراسخ القوي في الخليج العربي.

بل حَتَّى ولو لم يكن غرض الولايات المتحدة واضحاً فإنَّ عنصر المفاجأة للغرب من موافقة العربي على تصفية العراق كان كبيراً، لأنَّها تعني ضمناً إعطاء الفرصة للغريب لضرب الأخ والقضاء عليه.

القمَّة القادمة الآن هي في الافتراض النَّظري قمَّة لدرء خطر الحرب على الَّتي تريد الولايات المتحدة شنها على العراق من غير سبب إلا سبب إذلال الأمة العربيَّة. أي إنَّ الموقف الآن هو عكس ما كان عليه تماماً قبل عشر سنوات.

التحليل المنطقي يقول إنَّ الموقف يجب أن ينعكس أيضاً، فإذا كانوا قَدْ هجموا قبل عشر على عقد القمة للسَّماح بضرب العراق هجوم الصَّقر على الفريسة، فمن المفترض أن يتهربوا الآن من عقد قمَّة يكون غرضها الدفاع عن العراق، خاصَّةً وأن الذين تداعوا بالأمس ولبوا هم ذاتهم الذين يتداعون اليوم.

إنَّ اتِّساق النَّتائج أو المواقف مع التَّحليل المنطقي يعني سلامة المنطق والمنطق ليس بحاجةٍ لمن يدافع عنه. ولٰكنَّ هٰذا الاتِّساق المنطقي في موقف الحكام العرب يقودنا إِلَى نتيجةٍ حتميَّةٍ في التَّحليل المنطقيِّ أيضاً وهي أنَّ مواقف هؤلاء الحكام

ثابتةٌ متَّسقةٌ مع ذاتها، لم تتغير، ومن المؤكِّد أنَّها لم تتغير. ومن ثَمَّ فإنَّ موقفهم من تصفية القوة العراقيَّة الَّتي هي في المحصلة قوة للعرب ليست موقفاً طارئاً ولا عارضاً إنَّما هو موقف صميميٌّ متأصِّل في نفوسهم، هو الإصرار على جلد الشَّعب العربي بالضَّعف الذي يسمح لمن هب ودب أن يملي علينا إرادته وشروطه.

سيوجد من يعترض بأنَّ هٰذه القوة قَدْ أسيء استخدامها، ولن نعترض على ذَلكَ، ولٰكنَّ ما يجب أن يكون مدركاً هو أنَّ **صدام حسين** وسلطته لن يظلَّ إلَى الأبد، أمَّا القوة العراقية فكانت ستظلُّ للعراق والعرب، وهٰذه القوة الَّتي هي ملك العرب هي الَّتي تحاربها الولايات المتحدة وستقضي عليها بفضل الجهود العربيَّة، وهي المقصود، وهي الَّتي يصرُّ الحكام العرب على تدميرها. ورُبَّما هنا يمكن أن نفهم ما أعلنه أكثر من مسؤول أمريكي عندما قالوا: «إنَّ الحكام العرب يرفضون ضرب العراق في العلن، ولكنَّهُم كلُّهم أبدوا لنا تخوَّفهم من تنامي القوة العراقيَّة».

لَقَد كرر كثيرٌ جدًّا من المثقفين العرب، وحَتَّى الأوربيين والأمريكيين والآسيويين... قولهم: لو أنَّ الولايات المتحدة ستقتصر فعلاً على إزاحة **صدام حسين** ونظامه، على الرَّغْمِ من خطورة المبدأ ذاته على كثيرٍ من الحكام العربي أنفسهم، لما كان هناك من مشكلةٍ، فلتأخذه وتذهب، ولكنَّ المشكلة أكبر من ذَلكَ بكثير، **فصدام حسين** ونظامه لا يشكل أيَّ ذرة من غبار المشروع الأمريكي، هٰذا ما أفصح عنه الأمريكيون أنفسهم، وأفصح عنه **بوش** ذاته وغيره من المسؤولين الأمريكيين: ستبقى الجيوش الأمريكية في العراق طالما اقتضت الحاجة إلَى ذَلكَ!!

ومن ذا الذي يقدِّر الحاجة إلَى بقاء الجيش الأمريكي في العراق؟

ومن ذا الذي يحدِّد الدور الذي يقوم به الجيش الأمريكي في العراق؟

ومن ذا الذي يعرف ما الذي ستفعله الولايات المتحدة بعد ذَلكَ؟؟!

على الرَّغْمِ من أنَّ منطق الحكام العرب لا يختلف أبداً عن المنطق الأمريكيِّ، ولا اختلاف بَيْنَ غايات الحكَّام العرب وغايات المخططين الأمريكيين، بما فيها إيمانهم وقبولهم بفكرة «أكلت يوم أكل الثور الأبيض»... فإنَّنا لا نجد مناصاً من دعوتهم للدفاع عن ذاتهم لا عن **صدام حسين**.

إنَّ الحيلولة دون وقوع الاعتداء على العراق هي في الأساس حيلولة دون بدء مسلسل الكابوي الأمريكي في تغير الحكام وفرض الأنظمة الْمُشَكَّلة في وكالات الاستخبارات لأمريكية.

فهل من سميع؟؟

دمشق في ٢٠٠٣/٢/٢٦م

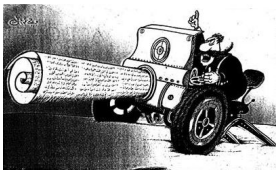

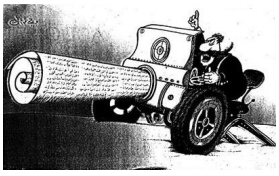

من كتب المؤلف المنشورة

- الأمم المتحدة بين الاستقلال و الاستقالة و الترميم . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخيَّة لا خيار سياسي – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- تفجيرات أيلول وصراع الحضارات . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.

- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون — دار طلاس — دمشق — ١٩٩٣م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق – ٢٠٠٣م.

فهرس

- **الإهداء** ٥
- **مقدمة الكتاب** ٧
- **الفصل الأول**: العرب كيف دخلوا القرن العشرين وخرجوا منه ١٣
- **الفصل الثاني**: العرب أعداء أنفسهم ٢١
- **الفصل الثالث**: العرب قوميون بالمفرق انفصاليون بالجملة ٣٣
- **الفصل الرابع**: الحكام العرب وعقدة الزعامة ٣٩
- **الفصل الخامس**: أزمة النظام الإقليمي العربي ٤٧
- **الفصل السادس**: العقلانية السياسية العربية ٥٩
- **الفصل السابع**: متى يستفيد العرب من دروس التاريخ؟ ٦٩
- **الفصل الثامن**: التطبيع بَيْنَ السنة وفرض العين ٨١
- **الفصل التاسع**: الانتخابات الأمريكية والرهان العربي! ٩٥
- **الفصل العاشر**: قمة بيروت من اليأس إلى الإحباط ١٠٩
- **الفصل الحادي عشر**: المنطق ينتصر للقمة العربية ١١٧
- **صدر للمُؤَلف** ١٢٥
- **المحتويات** ١٢٧

العرب أعداء أنفسهم

دمشق 2004م